## منازلة صُوْر

ثم تَـوجّه السلطـان إلى صور فنـازلها ونصب آلمجـانيق عليهـا، وذلك لاثنتي عشرة ليلـة مضت مـن شهر رمضـان، وكان قـد اجتمع في صـور خلق لايحصون من الفرنج، فقاتلهـم السلطان قتالاً شديداً، وبقي محاصرا لها إلى أن انقضت السنة.

وفي هذه السنة فُتحت هونين على يد الأمير بدر الدين دلدرم بالأمان.

## سنة أربع وثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة رحل السلطـان الملك النـاصر عن صـور، وذلك لأنـه تعذر عليه فتحها لكثرة من فيها وقـوة شوكتهم، فنزل على حصن كوكب، وذلك في العُشْر الأوسط مـن المحرم، فوجده حصناً لايُرام، فَـرتَّبَ قايماز النجمي في خمسمئـة فارس، ثم رحل السلطـان إلى دمشق فدخلهـا وأقام بها مُدَيْـدَةً يسيرة، ثم رحـل منها إلى بعلبك فـرتب أمـورها، ثـم سار إلى الزراعة، فوصـل الخبر أن عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي صاحب سنجار قـد وصل إلى بحيرة قدس قـاصداً خـدمةالسلطان لأجـل الغَزَاةِ، فسار السلطان ملتقيـاً له وعانقه، ثم نـزل ببحيرة قدس وخيما عليهما، ثم سار السلطان بـالعساكر حتى نزل البقيعة تحت حصـن الأكراد وذلك في أول ربيع الآخر، وبـث العساكر في تخريب بـلاد الفرنج وقطع أشجـارهم ونهب أموالهم، ثـم رحل السلطـان إلى طرطوس ففتحهـا عنوة وقتـل من ظفر به فيها.

# فتح جبلة واللاذقية

ثم مضى السلطان إلى جبلة فتسلمها بالأمان وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ثم رحل منها إلى اللاذقية فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الأمان فأمنهم وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى.ثم رحل منها إلى صهيون ففتحها بالأمان على قطيعة قررها عليهم، ثم توجه إلى الثغر فتسلمه بالأمان،ثم تسلم أيضاً بكاس وسلمها إلى الأمير غرس الدين قلج الساقي والد الأميرين سيف الدين وعماد الدين، ثم سيَّر السلطان ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب قلعة سرمانة فهدمها وقرر على أهلها قطيعة أخذها منهم.

ثم سار السلطان لستٍ بقين من جمادى الآخرة فخيَّم على حصن برزيّة وضربه بالمجانيق، فطلب أهله الأمان، فأمنهم وسلَّم هذا الحصن إلى الأمير عز الدين بن شمس الدين بن المقدم، ثم رحل السلطان إلى دربساك فتسلمها، ثم رحل إلى حصن بغراس فَتَسَلَّمَهُ أيضاً، ثم عزم على قصد أنطاكية فرغب الإبرنس صاحبها في الهدنة فهادنه السلطان، ثم رحل السلطان لثلاث مضين من شعبان على سمت حلب فودعه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعساكر الشرق، وعادوا إلى بلادهم.

ودخل السلطان إلى حلب فأقام بقلعتها أياماً، ثم سار إلى حماه فأقام بها يوماً، ثم سار إلى دمشق فأقام بها أياماً، ثم خرج منها في أوائل شهر رمضان طالباً للغزاة.

وفي هذه السنة كان فتح الكرك والشوبك، وكان من حديث ذلك أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب كان مقيما بتبنين في عساكره متحرزاً على البلاد من غائلة العدو، وكان صهره كمشبه الأسدي

موكـلاً بحصار الكرك، فضـاقت الميرة عليهم ويئسـوا من نجدة تـأتيهم، فتوسلـوا إلى الملك العادل وتضرعوا إليـه، ومازالت الرسـائل تتردد بينهم وبينـه حتـى دخلـوا تحت حكمـه، وخـرجـوا مـن الحصـن وسلمـوه إلى المسلمين، ووردت البشـائر بفتحه على السلطـان الملك النـاصر وقد بـرز من دمشق، ثم تسلم أيضاً الشوبك.

## فتح صفد

ثم سـار السلطان إلى صفـد فنازلها، ووصل إليـه أخوه الملـك العادل واجتمعـا على حصارهـا ودار الحصـار والقتال إلى ثـامـن شوال، فطلبـوا الأمان فَأُمنوا ودخلها المسلمون وتسلموها.

## فتح كوكب

ولما فتح السلطان صفـد سار إلى حصن كوكب، ونازلـه ونصب عليه المجانيـق، فطلب أهـل الحصن الأمان، وتَسَلَّـمَ الحصن منهـم، وذلك في منتصف ذي القعدة.

ثـم سار السلطـان ومعه أخـوه الملك العـادل قاصـداً بيت المقـدس، فوصله في ثـامن ذي الحجة فَعَيَّدَ به، ثـم سار إلى عسقلان فرتـب أمورها وجهز أخاه الملك العادل إلى مصر، ثم رحـل صوب عكا فوصلها في آخر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان مقتل شمس الديـن محمد بن المقدم غَلَطَاً في فتنة وقعـت بينه وبين أمير الحاج العـراقي بـالموسم، وكـان سببها أن شمـس الدين أراد تقـديم طبوله على طبـول الخليفة الناصر لديـن الله، فَمُنِعَ من ذلك، وجرى ماذكرناه.

- ٩٩٨٦ -

## سنة خمس وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة صار السلطان الملك الناصر رحمه الله من عكا متوجهاً إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر، ثم رحل منها لثلاث مضين من ربيع الأول متوجهاً إلى شقيف أرنون فأقام بمرج برغوث حتى اجتمعت إليه عساكره، ثم رحل حتى أتى مرج عيون وذلك لاحدى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فخيم بمرج عيون على قرب من شقيف أرنون، وهو يومئذٍ بيد أرناط صاحب صيدا، فنزل إلى خدمة السلطان وأظهر الطاعة وسأل أن يُمهل ثلاثة أشهر ليتمكن فيها مَنْ بِصُوْر من أهله، فأجابه السلطان إلى ذلك، وخلع عليه وأكرمه، فشرع أرناط في إصلاح الحصن وترميمه، والمسلمون في غفلة عنه، فلما بلغ السلطان ماهو بصدده من عمارة الحصن وتقويته انتقل من المرج إلى سطح الجبل ليلاحظ أرناط ويطلع على حاله، وأظهر إنما هو انتقل لأن المرج وَخِيْمٌ، فعلم أرناط بذلك فنزل إلى السلطان طائعاً متذللاً متضرعاً فكذَّبَ السلطان ماقيل عنه، ثم دَنَتْ المدة فسأل السلطان أن يزيده في مدة الإمهال، فعلم السطان غَدْرَهُ وَنَكْثَهُ فقبض عليه وسيره إلى دمشق فحبس بها، ووكل بالحصن يحاصره صيفاً وشتاء.

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد حشدوا وجمعوا وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فرحل السلطان إليهم فكانت بينهم وبينه وقعة كانت الكرة فيها للفرنج، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم كَرَّ المسلمون عليهم فَرَدُّوهُم حتى ازدحموا على جسر هناك، فغرق منهم مئتا رجل، ثم سار السلطان إلى تبنين فرتب أمورها، ثم سار منها إلى عكا ورتبها، ثم عاد إلى معسكره فأقام به.

- ٩٩٨٧ -

## نزول الفرنج على عكا

وفي هذه السنة قصدت الفرنج عكا، ونازلتها فرحل السلطان الملك الناصر رحمه الله حتى نزل قبالتهم بمكان يقال له الخروبة، ثم وقعت الحرب بينهم وبينه إلى أن انقضت السنة، وكان فيها وقعات بين المسلمين والفرنج يطول الكلام بذكر تفصيلها ويخرج الكتاب عن حَدِّهِ.

## سنة ست وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والفرنج يحدقون بعكا محاصرون لها، والقتال مستمر بين الفريقين فتارةً يظهر المسلمون وتارة يظهر الفرنج.

وفي هذه السنة قَدِمَتْ العساكر من جميع الأقطار مدداً للسلطان الملك الناصر رحمه الله، فكان أول واصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير عز الدين بن المقدم وغيرهم، فكثرت العساكر واشتدت الحرب بين الفريقين، ثم وصل مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه بن غازي، ثم علاء الدين خُرَّ مشاه بن مسعود في عساكر الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل في جنود كثيرة، واشتدت الحرب، وضايَقَتِ الفرنج عكا، وجاءتهم الأمداد من البحر.

وفي هذه السنة توفي زين الدين يوسف بن علي كوجك، ففوض السلطان مملكة إربل إلى أخيه الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين.

## سنة سبع وثمانين وخمسمئة:

دخلت هذه السنة وقد اشتدت مضايقة العدو خذله الله لعكا، والقتال بينهم وبين السلطان الملك الناصر رحمه الله مستمر،وأمداد الفرنج من البحر متواصلة،ولما اشتد الحصار على أهل البلد واحيط بهم ولم يبق الا تسلُّمهُ، وضعفت قوة المسلمين به وقلت منعتهم، ونقبت بدنه من الباشورة، ويئس الناس من بقاء البلد، خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى ملك الفرنج وطلب منه الامان فأبى ملك الفرنج الا النزول على حكمه، فقال له المشطوب: نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ورجع عنهم مغاضباً.

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الاخرة زحف الفرنج الى عكا زحفا شديدا، واشرفوا على الاستيلاء عليها فطلب المسلمون منهم الامان على ان يسلموا اليهم البلد، ويعطوهم: مئتي الف دينار، ومئة أسير من المعروفين، وخمسمئة أسير من المجهولين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس واربعة آلاف لحجابه، فأجابهم الفرنج الى ذلك وتسلموا البلد واحتاطوا على من كان بها رهينة على القطيعة المقررة.

فلما كان ثامن من رجب جاءت رسل الفرنج الى السلطان لأخذ القطيعة، فأحضر السلطان مئة ألف دينار وصليب الصلبوت والأسارى المطلوبين، وشرط عليهم أن يطلقوا جميع من أخذوا من المسلمين وأن يأخذوا على بقية المال رهائن، فأبوا الا الجميع ومازال الأمر يختلف بينهم ويتردد تتمة شهر، ثم حضرت رسل الفرنج فوجدوا المال موقورا، ووجدوا صليب الصلبوت، وقد كانوا ظنوا أن السلطان قد سيره الى الخليفة ولاوجود له عنده، فخروا له سجدا حين رأوه، ثم ظهر للسلطان مكرهم وغدرهم فتوقف في اعطاء المقرر، وكان من جملة مابان له من غدرهم ان

ملك الانكتير ركب بالفرنج الى البحر، فركب السلطان قبالتهم فأحضر الفرنج جماعة من أسارى المسلمين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فحمل المسلمون عليهم فأزالوهم عن مواقعهم وقتلوا منهم جماعة، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم تصرف السلطان في ذلك المال المقرر.

ولما دخل شهر شعبان رحلت الفرانج بخيلهم ورجلهم، فعرف السلطان ان مقصدهم عسقلان فرحل بالمسلمين في قبالتهم، ومازال يترك المسلمين يقاتلونهم مرحلة مرحلة، ثم كانت وقعة بنيهم وبين السلطان بنهر القصب واستشهد من المسلمين في هذه الوقعة إياز الطويل، وكان شجاعاً مقداماً.

ثم كانت وقعة بأرسوف كانت الكرة فيها على الفرنج ووصل السلطان عسقلان فشرع في هدمها وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، ثم رحل السلطان الى يبنى، فأمر بتخريب حصنها، وتخريب لُدّ، ثم مضى جريدة الى القدس فزاره ثم عاد.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية.

**سيرته:** كان ملكاً شجاعاً عادلا كريما بطلا كميا ضرغاما، ولما توفي فوض السلطان الملك الناصر عمه الملك بحماه، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، الى ولده الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب وبعث اليه منشوراً بذلك فتسلم هذه البلاد وملكها.

وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين لاجين وهو ابن أخت السلطان، وكانت وفاته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وهو اليوم الذي توفي فيه الملك المظفر، فأصيب في يوم واحد بابن أخيه وابن

اخته، وكـان هذا حسام الـدين أميرا عظيم الشأن عـاقلاً عادلاً شجـاعاً، وهو الذي تـولى فتح نابلس من الفرنـج فأقطعه السلطان إياهـا، فكانت في يده الى أن مات.

## سنة ثمان وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنـة قسم السلطان الملـك الناصر رحمه الله عمارة سـور بيت المقدس على أخيـه واجناده واولاده، ولم يزل رضي الله عنه جـادا مجتهدا في عمارتها حتى علت وارتفعت، شكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وفيها كان خلاص الأمير سيف الديـن المشطوب من أسر الفرنج على مال قرره لهم، فـأقطعه السلطان نابلـس، ثم عاش سيف الـدين الى آخر شوال من هذه السنـة ثم توفي فعين السلطان ثلث نابلـس لمصالح البيت المقـدس، وابقى بـاقيهـا على الأمير عماد الديـن احمد بـن سيـف الديـن المشطوب.

وفيها قصـد الفرنج قلعـة الداروم فحاصروها ثـم فتحوها عنـوة، وقتلوا من أهلها جماعـة، وأسروا جماعة، وذلك في شهر جمادى الأول، ثـم كانت في هـذه السنـة وقعـات بينهـم وبين المسلمين في كلهـا يكـون الظفـر للمسلمين إلا وقعـة واحدة كـان مقدم المسلمين فيهـا فلك الـدين أخـا السلطان [العـادل] فإن الفرنـج دهموهم على غـرة فهزموهـم واحتووا على أثقالهم.

وفيها نزل السلطان على يافا ففتحها عنوة ونهبها وقتل جماعة منهم بها، وامتنعت عليـه قلعتها فطلب أهلهـا الأمان أن ينزلـوا تحت حكم الأسر، ويسلموا جميع الأموال والذخائر على أن يطلـق كل واحد منهم بأسير من المسلمين فأجيبـوا الى ذلك، وخـرجوا آحـادا وعشرات، وطولـوا ساعـات الانتقال، حتى دخل الليل، فاستمهلـوا الى الصباح ومازالوا في التسويف

حتى وصل اليهم ملك الانكتير ليلا من جانب البحر، ودخل القلعة فنادوا بشعار الغدر، فاكتفى المسلمون منهم بمن حصل في أسرهم، ورحل السلطان الى الرملة.

**ذكر الهدنة:** ثم وقعت الهدنة بين السلطان والفرنج مدة ثلاث سنين وثمانية اشهر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية، واستعاد منهم الداروم.

ثم رحل السلطان رحمه الله الى البيت المقدس فأقام به منشغلاً باتمام أسواره، ثم رحل الى دمشق فدخلها في أول ذي القعدة.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهو من السلاطين السلجوقية على ماذكره العماد الكاتب، وكان أولاده غالبين عليه، وليس له معهم الا مجرد الاسم، فلما مات ملك ولده غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان.

- ٩٩٩٢ -

## سنة تسع وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، رحمه الله، وقدس روحه، وذلك بكرة يوم الاربعاء لثلاث بقين من صفر، فكانت مدة عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً فمات بموته الرجال، وفات بوفاته الافضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادلهمت الآفاق وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزيء الاسلام بمشيِّد أركانه.

**سيرته رضي الله عنه:** كان رضي الله عنه خائفاً من ربه تعالى، شديد التمسك بالشريعة، محباً للعلم والعلماء، مواظباً على الجهاد في سبيل الله، مقبلاً على تحصيل مايقربه من الله زلفى، مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن السيئات،كرياً لين الجانب متواضعاً،حسن الاخلاق طيب الاعراق، ضحوكا بمهابة، مخوفا بجلالة، يغضب للكبائر، ولايسامح بالصغائر، غزير البذل كثير العطاء، وأقل شاهد على صحة ذلك أنه كان جامعاً بين مملكة الشام واليمن وديار مصر وبلاد المشرق، ومات وليس في خزائنه درهم ولادينار، ومات دفن بالقلعة المحروسة في داره وأظلم الدهر بعد ضياء أنواره، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

-٩٩٩٣-

## خبر أولاده وأهل بيته بعد وفاته رحمه الله:

ولما توفي السلطان الملك الناصر رحمه الله استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أيوب، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف ابن أيوب وبحلب وأعمالها ولده الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي ابن يوسف بن أيوب. وكانت حران والرها وكل ماهو شرقي الفرات من الولايات بيد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم بيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وبعلبك وأعمالها بيد الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب. وحمص وأعمالها بيد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شاذي.

وكان السلطان الملك العادل رحمه الله حين بلغه وفاة أخيه الملك الناصر بالكرك وهي حصنه ومستقرة، فقدم الى دمشق وأقام بها العزاء، ثم توجه الى قلعة جعبر حذراً على البلاد الشرقية من غائلة العدو، فأقام بقلعة جعبر، وبعث النواب الى حران، والرها، وميافارقين، وحاني، وسميساط، ورتب امورها.

ولما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة السلطان الملك الناصر خرج بالعساكر الكثيرة الى نصيبين وبها أخوه عماد الدين زنكي، واجمعوا على حرب الملك العادل واخراجه من البلاد، وكان الأمير بكتمر صاحب أخلاط قد ضرب البشائر حين بلغه موت السلطان ، وعظم سروره بذلك، وتسمى بالملك الناصر، وكاتب صاحب الموصل وصاحب سنجار، وصاحب ماردين، لينجدوه على حرب الملك العادل، فبينما هو في تيهه وطغيانه وقد حدثته نفسه بما لم يظفره القدر به اذ وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وكفى الله السلطان الملك

العادل شره، وكان هذا عنوان السعادة ودليلها، وكان مقتله لست عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى.

وكتب الملك العادل الى بني أخيه: الملك الافضل، والملك العزيز والملك الظاهر يستصرخ بهم، فأنجدوه بالأمداد والعساكر، وجاءته عساكر: بعلبك ، وحمص، ودمشق، مع الملك الظافر خضر بن الملك الناصر.

وأما المواصلة فإنهم وصلوا الى رأس عين، ومضى الملك العادل الى حران وخيم بها، فاتفق مرض عز الدين مسعود صاحب الموصل فحمل اليها في محفة، وعاد عماد الدين صاحب سنجار راجعاً، وراسل صاحب ماردين الملك العادل في الصلح فرضي عنه.

ثم أمر الملك العادل ابن أخيه الملك الظافر بمنازلة سروج، وكانت لعماد الدين صاحب سنجار، فنازلها وجهز اليه الملك العادل مددا الملك المنصور صاحب حماه، والأمير عز الدين ابراهيم بن المقدم، فنازلوها وفتحوها لثلاث مضين من رجب، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله في منتصف رجب الى الرقة فحاصرها وتسلمها في العشرين منه، ثم رحل الى الخابور فملكة، ثم رحل الى نصيبين فنزل بظاهرها، وأتته رسل صاحب سنجار في طلب الصلح.

واتفقت وفاة عز الدين صاحب الموصل في هذا الشهر، فملك بعده ولده نور الدين رسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي، وجرى الصلح بينهم وبين الملك العادل، ثم قصد السلطان العادل أخلاط، فخاف من البرد إن نازلها فأخر أمرها الى الربيع وعاد الى الرها وحران.

## ذكر ابتداء الوحشة بين الاخوين الملك الافضل والملك العزيز:

كان للملك الافضل وزير من أهل الجزيرةغاش، فأشار عليه بإبعاد أمراء أبيه وأكابر أهل دولته، وحمله على ان يستجد أمراء وأصحابا من مماليكه المستجدين، واخبره ان أمراء أبيه يشتطون عليه ولايرضون منه إلا بالكثير، وأعمال دمشق لاتسعهم، وانما تسعهم أعمال مصر، وان الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل وأي شيء أعطاهم استكثروه، فاغتر الملك الأفضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد أمراء أبيه والعظماء من أتباعه حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته واستخدم أمراء مجهولين ومماليكا خاملين.

وأشار عليه ايضا باخلاء البيت المقدس، وتسليمه الى نواب اخيه الملك العزيز، وأخبره أنه يحتاج الى مؤن عظيمة وكلف كثيرة ففعل ذلك الملك الافضل، وكاتب أخاه في تسلم القدس فقبله الملك العزيز وسربه وشكره على فعله، وكان السلطان الملك الناصر رحمه الله قد جعل ثلث ارتفاع نابلس وقفا على عمارة القدس ومصالحه، فخان الولاة بنابلس وأكلوا، ولما بلغهم عزم الملك الافضل على تسليم القدس الى الملك العزيز خافوا منه أن يحاققهم ويحاسبهم ويصرفهم عن ولاياتهم، فكاتبوا الملك الأفضل يبذلون له القيام بسائر مصالح القدس من وقفه، وأنهم لايحوجون الى بذل شيء آخر من ماله.

فأجابهم الملك الأفضل الى ملتمسهم، وبدا له فيما كان كاتب الملك العزيز به، فتألم الملك العزيز من ذلك واستوحش بسببه.

وكان الملك الافضل كلما أبعد أميراً وكبيراً من أصحاب أبيه، أدناه الملك العزيز، وقربه، وفسح أمله، وأجزل عطاءه، وأقطعه الاقطاعات

الكثيرة، وأحسن الى أمراء أبيه وأصحابه المعتبرين، وحفظ عهودهم القديمة فأحبوه ولاذوا بكنفه وعاضدوه فتمكنت دولته وتشيدت مملكته، وكانت سيرته بالعكس من سيرة اخيه.

وكان من جملة الأمراء الذين صاروا الى الملك العزيز، وفارقوا أخاه الملك الأفضل الأمير فخر الدين جهاركس، فجعله الملك العزيز استاذ داره، وقدمه على أمرائه، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، وهؤلاء الثلاثة من عظماء الدولة وأكابرها.

وقويت الوحشة بين السلطانيين الافضل والعزيز، واجتمعت كلمة الامراء الصلاحية على أن يكون الأمر مجتمعا للملك العزيز إذْ هو محيي سنة والده وسالك طريقته، فاختلت امور الملك الأفضل واضطربت أحواله، ولو كان مع تقدير الله سبحانه، سلك طريق الرأي والحزم لكان الأمر بخلاف ماوقع، لكن لكل مقدر سبب.

## سنة تسعين وخمسمئة:

في هذه السنة خرج السلطان الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر الى البقاع وخيم بها، فقيل للسلطان الملك العزيز: ان توانيت ذهبت بلادك، فبرز الى البركة وبذل الاموال وقصدته الرجال وعظم أمره، وسار في الارض ذكره، فخاف الملك الافضل لما بلغه ذاك، واستشعر ونزل برأس الماء، واستشار أصحابه فاختلفت آراؤهم واضطربت، وفارقه الأمير صارم الدين قاياز النجمي، وصار الى الملك العزيز، فجعله من أكبر امرائه، فكاتب الأفضل اخاه الظاهر صاحب حلب وحالفه على الاتفاق والمعاضدة، وكاتب عمه السلطان الملك العادل يستنجده ويستصرخه.

**حصار دمشق:** وقدم الملك العزيز في جحافله فلما وصل الى الفوار ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها، خالطت مقدمته ساقة عسكر دمشق، فولوا منهزمين لايلوون على شيء، ودخل الملك الأفضل دمشق على أقبح صورة، ونزل الملك العزيز بالكسوة، وذلك لست مضين من جمادى الآخرة، ثم نزل في سابع جمادى على دمشق محاصرها، والأفضل يدافع ويمانع الى أن وصل عمه السلطان الملك العادل رحمه الله، وكتب الى ابن اخيه الملك العزيز يسأله الاجتماع به فاجتمعا راكبين بصحراء المزة، وسأله الاقلاع عن قتال اخيه، وان يكف عنه، فأجاب الى ذلك وامتثل أمره.

**وقوع الاتفاق بين الملوك:** ثم تأخر الملك العزيز مرحلة الى صوب داريا والاعوج، وكان بدمشق عند الملك الأفضل الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ثم وصل الملك الظاهر بن الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق، ووقع الاتفاق على عقد الصلح بين الجميع، ورحل الملك العزيز الى مرج الصفر فنزل به، وكتبت نسخة يمين مضمونها: أنه يكون كل واحد من الملك الأفضل والملك العزيز، والملك الظاهر، والملك العادل ببلاده وأجناده آمناً من أن يقصده صاحبه، وان الملك المجاهَد أسد الدين، والملك الامجد يكونان مع الملك الأفضل مؤازرين له، وأن الملك المنصور صاحب حماه يكون مع الملك الظاهر مؤازرا له.

وحلف الملك العزيز بمقتضى هذه النسخة وزال الخلاف وسكنت الدهماء، وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك [العادل] فأجيب الى ذلك، وعقد عقد النكاح وكان متوليه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق، وحلفت الملوك، ورجع الملك العزيز الى

مصر بعد ان خرج الناس من دمشق لوداعه، وذلك في شهر شعبان ورجع كل ملك الى بلده.

ورجع السلطان الملك العادل الى البلاد الشرقية، وأقبل الأفضل على الشرب واللهو وأعرض عن الاشتغال بمصالح الرعية، والامور كلها معذوقة بوزيره الجزري، وكان الجزري هذا سيء الرأي، فاسد التدبير، ردىء السيرة، فتشعثت بسببه الأمور، وفسدت المملكة، ففارق الملك الأفضل الأمير عز الدين سامة، وشمس الدين ابراهيم بن السلار، ومن الأعيان جمال الدين بن الحسين، والقاضي محيي الدين بن زكي الدين لما شاهدوه من الأحوال الفاسدة، وحرض الأمير عز الدين سامة وابن السلار الملك العزيز على محاربة الملك الأفضل، والمسير الى الشام واستحثاه استحثاثاً شديداً، وكذلك فعل غيرهما من أكابر الأمراء والملك الأفضل مع ذلك غافل عن صلاح حاله مستهتر بلهوه، وبينما هو على ذلك إذ اصبح ذات يوم مظهرا للتوبة، من غير سبب، ونادى بذلك، وأراق الخمور، ولازم الاعتكاف والصلوات والعبادات والصدقات ولبس القطن والكتان، ونهى عن المنكر، وأمر بالمعروف، وجالس الفقراء، وآكلهم وبالغ في التقشف الى ان صار يصوم النهار ويقوم الليل.

## سنة احدى وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الاخبار الى دمشق بعزم السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر على قصد دمشق وحصارها، فأشار العقلاء على الملك الأفضل بمراسلة اخيه الملك العزيز واستعطافه وملاطفته، وأشار عليه وزيره الجزري بأن يتوجه الى عمه الملك العادل، ويستنصر به ويستنجده على أخيه الملك العزيز، فأصغى إليه ومال الى قوله، ورحل من دمشق لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى في خواصه متوجها الى الرقة، فتلقاه عمه السلطان الملك العادل رحمه الله

بصفين، فسأله الملك الأفضل المعاضدة والمساعدة، وان يصير معه الى دمشق ليمتنع أخوه من قصده، فأجابه الملك العادل الى ذلك، وسار من صفين متوجها الى دمشق، وكان دخوله اليها لليلة بقيت من جمادى الآخرة ومضى الملك الأفضل الى حلب مستنصرا بأخيه الملك الظاهر، فتحالفا على الاتفاق والمساعدة.

ثم توجه الملك الأفضل الى حماه فأضافه صاحبها الملك المنصور وتحالفا، ثم صار الى دمشق فدخلها وأقام بها هو وعمه الملك العادل رحمه الله، متوافقين متعاضدين.

ورأى السلطان الملك العادل من قبح سيرة الملك الأفضل، وسوء تدبيره ما اشتدت كراهيته له، وكان ينهاه عن أفاعيله فلاينتهي، ويعظه فلايتعظ. ولم يأل الملك العادل رحمه الله جهده في الذب عنه، ودفع مايقال فيه، فلم يجد ذلك كله ولاأثر شيئاً.

ولما تطاول ذلك وكثر تغير عليه رحمه الله وتنكر، وظهر ذلك عليه، وكتم الملك الأفضل سببه، وصار الملك الأفضل تحت يد الملك العادل وتحكمه، متصرف فيه أمره ونهيه، فنفذت فيه سهام الملك العادل، وعلم أن ملكه صائر إليه لامحالة، فكاتب الأمراء ولاطفهم واستمالهم.

وكانت الأمراء الأسدية مائلة الى عثار الأمراء الصلاحية، مؤثرة بوارها وهلاكها، وكان السبب في ذلك تقدم الصلاحية عليهم عند الملك العزيز، فاستمالهم الملك العادل، وكاتبهم سرا، وكاتب الملك العزيز بالتخويف والتحذير منهم، وكانوا إذا ركبوا الى خدمة الملك العزيز رأى التنكر في وجوههم منه، ورأوا منه مثل ذلك، فتنافرت القلوب، وتم للملك العادل في تدبيره ماأراد.

ولما اطلعت الأمراء الأسدية على نفرة الملك العزيز منها خافوه،

وحسنوا للأكراد مخالفته، وكان أميرهم المقدم عليهم أبا الهيجاء السمين، فوافقوه سراً على المصير الى الملك العادل، والملك الأفضل، وأن يقاتلوا معهما الملك العزيز ويحاربوه، وخوفوه إن لم يفعل ذلك أن تفسد الصلاحية عليه قلب الملك العزيز، ويكون ذلك مؤديا الى هلاكه، فحالفهم هو ومن تبعه من الأكراد على ذلك.

ولما عيد الملك العزيز عيد الفطر بمصر توجه يريد الشام لحصار دمشق وتملكها، فحين بعد عن الديار المصرية فارقه أبو الهيجاء السمين والأكراد والمهرانية والأسدية، ولحقوا بالملك العادل، وذلك ليلا لأربع خلون من شوال، وأصبح الملك العزيز في قلة من العدد فرجع الى مصر على طريق اللجون والرملة، وخاف من بقية الأسدية الذين معه الاقتداء بمن فارقه وأن يكونوا عينا لهم، وكان من الأمور المولدة للاضطراب أن الملك الظاهر صاحب حلب كان لما صالح عمه السلطان الملك العادل وأخويه الأفضل والعزيز، شرط أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بارين، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر ومن معه من الياروقية في خدمته، ووقع الحلف على ذلك.

وكان الملك الظاهر قد اعتقل بدر الدين دلدرم بذنب نسبه اليه، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ومضى الى تل باشر فحاصرها فلم يقدر عليها، فلما اجتمع الملك العادل بالملك الظاهر شفع في دلدرم وأهل بيته، وضمن له أنهم يكونون في خدمته، فشفع الملك الظاهر عمه فيهم وأفرج عنهم، وعاد من حصار تل باشر، واستصحبهم الملك العادل ليكونو ا في نجدته.

فلما صار الملك العادل بدمشق وجرى ماذكرناه من استمالته أمراء

مصر ومكاتبتهم استخدم بدر الدين دلدرم وأصحابه لنفسه، واقتطعهم عن الملك الظاهر.

وكان الملك المنصور صاحب حماه، قد حلف لابن عمه الملك الظاهر على البلاد التي في يده، وهي :حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج ، وقلعة نجم، وزاده الملك الظاهر جبلة واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل، وصهيون، وحلف له على ذلك كله، وأنه يستخلص هذه البلاد التي وهبها للملك المنصور ممن هي في يده، وان احتاجت الى حصار حاصر، فلما جرى من اضطراب الحال بين الملك العزيز والملك الافضل وعمهما الملك العادل ماوصفناه، خاف الملك المنصور، والامير عز الدين بن المقدم من اجتماع الملك الأفضل والملك العادل، فوصلت كتبهما الى الملك العادل بالاعتصام به، والتمسك بخدمته، وفارقا الملك الظاهر، فوافقهما الملك العادل وتحالفوا على ذلك.

ولما رأى الملك الظاهر أن عمه الملك قد استجلب اليه من كان في خدمته، كاتب أخاه الملك العزيز يستحثه على الخروج الى الشام، ومقابلة الملك العادل والملك الأفضل، فخرج من مصر كما ذكرناه، وفارقته الأسدية والمهرانية وغيرهم وصاروا الى الملك العادل، وعاد العزيز الى مصر كما سبق ذكره لقلة عدده، وحرض ابو الهيجاء السمين والأسدية الملك العادل على قصد مصر وأخذها، وهو نوا عليه أمر الملك العزيز.

**قصد الملك العادل والملك الأفضل مصر:** فتحالف الملك الأفضل وعمه الملك العادل على قصد مصر وتملكها، وان يكون للافضل الثلثان وللملك العادل الثلث، وكان ذلك سراً، ولم يصح ولم يتثبت وانما حدس وظن.

ثم رحل السلطانان العادل والأفضل بجموعهما قاصدين الديار المصرية، واستخلف الملك الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى،

وحرصت الأسدية على أن تسبق الملك العزيز الى الديار المصرية ليمنعوه منها فلم يقدروا على ذلك، واجتهدوا فلم يدركوه.

وسر السلطان الملك العادل بوصول العزيز واستقراره بمصر، لأنه في الباطن لم يكن من رأيه محاصرة الملك العزيز ولاأخذ مصر، وإنما قصده خوفا من شولة(١٥) الأمر ان لم يوافقهم على قصده وحربه أن يصيروا الى الملك العزيز ويستولوا على الديار المصرية، ولايبقى للعزيز معهم إلا مجرد الاسم، لحداثة الملك العزيزوصغر سنه، وعدم تجربته للأمور، فكان يصعب انتزاع مصر من أيديهم، فأجابهم الى قصدهم وقال في نفسه: إن غلب القوم الملك العزيز فمصر لي وللملك الأفضل، وإلا فهي للملك العزيز على مانؤثره، فكان هذا رأيه، غير أنه أبطنه وكتمه، فسار بجموعه الى مصر، ونزلوا على بلبيس محاصرين لها، وكان بهامن الأجناد الصلاحية والعزيزية خلق كثير.

وكان نزول الملك العادل والملك الأفضل عليها في وقت زيادة النيل، وكانت الأسعار غالية، والعلف معدوم، ومنعت الزيادة من نقل المؤن والعلوفات إليهم، فغلت الأسعار، وارتفعت أثمانها، وبذل الملك العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد.

**وقوع الاتفاق بين الملك العادل وابني أخيه العزيز والأفضل:** ثم ندم الملك العادل على مافعل، وكذلك الأسدية، وأخذوا في إصلاح الأمر وتلافيه، وبعث السلطان الملك العادل الى القاضي الفاضل رحمه الله يستدعيه ليستشيره، فامتنع حتى أذن له السلطان الملك العزيز، فخرج الى الملك العادل فاحترمه غاية الاحترام واستشاره فيما يفعل، فأشار بصلاح ذات البين فاصطلحوا ووقع الاتفاق، وعفا الملك العزيز عن الأمراء الأسدية وطيب قلوبهم وردّ اليهم اقطاعاتهم وأجازهم وحلف لهم وحلفوا له، وحلف كل من الملوك الثلاثة: الملك العادل والملك

الافضل والملك العزيز لصاحبه، وتوثقوا بالايمان، وعادت الأسدية الى خدمة الملك العزيز، وعاد الملك الأفضل الى دمشق ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وكان قد ولاه بيت المقدس.

وأقام السلطان الملك العادل بمصر، واستوطن القصر، وأخذ في اصلاح الديار المصرية جندها وأرباعها وضياعها، وأظهر من محبته لابن اخيه الملك العزيز وشفقته شيئا كثيرا، وقام بأموره كلها صغيرها وكبيرها.

## سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وصل السلطان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر الى دمشق، وكان دخوله اليها في غرة المحرم. وفي هذه السنة خرج السلطانان الملك العادل والملك العزيز متوجهين من الديار المصرية الى دمشق لأخذها من الملك الأفضل، وكان السبب في ذلك انه اتصل بالملك العادل أخبار الجزري وزير الملك الأفضل، وفساد دولة الملك الأفضل بسوء تدبيره وكثر شاكوه، وقل شاكروه، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال، وتخوف الملك العادل اضطراب المملكة بسبب ذلك، وأداء ذلك الى مايكره، فحملته الحمية على الخروج لتمهيد البلاد، وضبط الأمور وإزالة ماعرض من المفاسد، فسار الملك العادل والملك العزيز من مصر، وقد امتلأ الفضاء بعساكرهما كثرة، وصارا الى الدواروم وغزة فنزلا بها.

وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد بعث أخاه الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك الناصر الى مصر لإصلاح أحوالهم، وبعث أيضا قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن شداد رحمه الله، ولما رجعا من مصر اجتازا بدمشق وأخبرا الملك الأفضل بعزم الملك العادل والملك العزيز

على قصده، فضاق بذلك ذرعا، وأشار عليه عقلاء أهل دولته بملاطفة أخيه وعمه ومكاتبتهما، إلا وزيره الجزري فإنه بجهله أشار بمقابلتهما ومقاومتهما، وقال له: إن دمشق حصينة لاترام وأهلها يحبونه، وكذلك أشار عليه أخوه الملك الظافر خضر ابن الملك الناصر وقال له: لاتحزن فالبادىء أظلم والمسلم الى الله اسلم.

وتولى الملك الظافر تهئية أسباب الحصار واستكثر من العدد والعدة، ووافت رسل الملك الظاهر الى اخيه الملك الافضل بالصبر والمصابرة، ووعده بالمؤازرة والمظاهرة والنجدة والمساعدة، وبعث الملك الأفضل الأمير فلك الدين أخا الملك العادل رسولا الى السلطانين الملك العزيز، والملك العادل يدعوهما الى الصلح فأجابا بشروط التمساها.

وعاد فلك الدين الى دمشق مسرورا بالتئام الشمل واذا الجواب قد عاد بأن الملك الأفضل امتنع من الصلح وأنه لايجيب الى مااشترط، وانه قد سور بلده وخندقه، فعجب الملك العادل والملك العزيز وتألما له، وسارا من منزلتهما الى دمشق.

**منازلة الملك العادل والملك العزيز دمشق:** فوصلا اليها ونازلاها.. وأقاما شهرا لم يحدثا قتالا ولا احراقا ولا افسادا، رجاء وقوع الألفة وانتظام الشمل، وأكابر الدولة يشيرون على الملك الأفضل بالخروج الى عمه وأخيه واستعطافهما، فيأبى ذلك ويعمل برأي وزيره وأخيه الملك الظافر، فلما رأى الأكابر ذلك فسدت نياتهم وكاتبوا الملك العزيز سرا واصلحوا أمورهم معهما، ووصلت كتبهم اليهما بتعجيل القتال وانتهاز الفرصة.

**استيلاء الملك العزيز على دمشق:** فركب الملك العادل والملك العزيز، وضرب البوق، وقصدا دمشق وذلك لأربع بقين من رجب فما ردهم راد

ولاصدهم صاد الا الملك الظافر خضر بن الملك الناصر فإنه قاتلهم فهزموه.

ووصل الملك العزيز الى الميدان الأخضر، ووصل الملك العادل الى باب توما ففتحه له أمير كان عليه، فدخل الملك العادل وأصحابه منه ومن باب شرقي، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات عند عمته الحسامية، وبات الملك العادل في دار عمه أسد الدين.

ولما دخل الملك العزيز خرج اليه أخوه الملك الأفضل فتلقاه، وأقام الملك العزيز بمخيمه في الميدان الأخضر الى أن انتقل الملك الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، ونزل بمسجد خاتون ومايجاوره من الدور، ومعه وزيره الجزري خائفا على نفسه.

ووقعت واقعة عجيبة لو أحسن فيها الملك الأفضل التدبير لحمد العاقبة لكنه فرَّط فجنى ثمرة تفريطه، وهي أنه كان استقر من الملك العادل والملك العزيز أن الملك العزيز يقيم بدمشق ويكون الملك العادل نائبا عنه بمصر، فلما فتحت دمشق ندم الملك العزيز على ماقرر وخاف من استيلاء الملك العادل على الديار المصرية، فبعث الى الملك الافضل سرا يعتذر اليه ويشير عليه بما هو عين المصلحة، وهو أنه إذا طالبناك فامتنع ولاترض الا بالسكة والخطبة لك، فإني أجيبك اليهما ولاأمنعك منهما وأعطيك ماتريده، ويكون امتناعك لي عذرا لي عند عمي، فأظهر الملك الأفضل هذا السر لأصحابه وأفشاه، وقالوا: لاتخدع بهذا القول واطلع عمك الملك العادل عليه فإنه كأبيك في الشفقة، فأرسل الملك الأفضل الى عمه فعرفه بذلك فقامت قيامته، وعتب بسببه على الملك العزيز، وقال له: أنا أبني وأنت تهدم فأنكر ذلك الملك العزيز، وحلف على بطلانه.

وبعث الملك العزيز الى الملك الأفضل فأزعجه بالعتب والخصومة

وأخرجه من دمشق الى صرخد فسكنها بعائلته، وكانت بصرى بيد الملك الظافر فأخذها منه أخوه الملك العزيز مقابلة له على مافعله من المقاتلة والمحاربة، فسار الى أخيه الملك الظاهر فأكرمه.

**استيلاء السلطان الملك العادل رحمه الله على دمشق:** ولما ملك السلطان الملك العزيز دمشق جلس في دار العدل، فكشف المظالم، وأبطل المكوس، فظن الناس أنه يقيم بدمشق ويستوطنها فلم يشعروا به إلا وقد أزمع الرحيل فبرز الى مسجد القدم، ثم الى الكسوة، وقرر عمه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب رحمه الله في دمشق وبلادها، وسلمها اليه، فملكها السلطان الملك العادل رحمه الله، وأحسن القيام فيها، وكان أحق بها وأهلها، لما كان رحمه الله مختصا به من حسن السياسة وصواب التدبير، فابتهجت به الممالك الشامية، وأشرق نورها واستبشرت بتملكه الرعايا، وتضاعف سرورها، لازالت الرحمة مضاعفة له من الرحيم الغفور، ولابرحت ذريته ملوك هذه الأمة الى يوم البعث والنشور آمين.

ثم سافر السلطان الملك العزيز متوجهاً الى الديار المصرية وودعه عمه السلطان الملك العادل وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوما.

ولما عاد السلطان الملك العادل الى دمشق بعد وداعه لابن أخيه السلطان الملك العزيز، قرأ منشوره على رؤوس الاشهاد، وأبقى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه.

- ١٠٠٧ -

## سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الأخبار بعزم الفرنج خذلهم الله على قصد بيروت، فخرج السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق في عساكره، فخيم قريبا من صور، وبعث الى بيروت من تولى اخراب مدينتها دون قلعتها ليكفي المسلمون عاقبة أمرها، فخربت المدينة حتى بقيت كأن لم تكن، وأمر بتحصين قلعتها فتولى ذلك الأمير عز الدين سامة، وبالغ في تحصينها، وترك فيها جماعة من مماليكه وأصحابه.

**استيلاء الفرنج على بيروت:** ولما انفصل عز الدين سامة عن بيروت، خافت الجند المرتبون بها من الفرنج، فخرجوا منها منهزمين، ووصلت الفرنج فملكوها، واستولوا عليها، وعزموا على قصد جبلة واللاذقية، فبعث السلطان الملك العادل الى ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب يعلمه بما عزمت الفرنج عليه، فوصلت كتبه بأنه قد جمع خلقاً من التركمان، وبرز لحفظ البلاد الساحلية، وطلب من عمه نجدة ليقوى بهم على العدو.

وأما الفرنج فإنهم رحلوا من بيروت الى صيدا، فنزلوا عليها، ونزل بعضهم على تبنين فحاصروها وضايقوها مضايقة شديدة، فسار السلطان الملك العادل الى تبنين، وأقام بها في مقابلة الفرنج، وكتب الى ابن اخيه السلطان الملك العزيز يخبره بذلك، فبرز من مصر وجهز من عساكره مقدمة، وسار في إثرها بجحافله، ثم رحلت الفرنج خذلهم الله عن تبنين، ورجع الملك العزيز الى مصر.

- ١٠٠٠٨ -

## سنة أربع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملك العادل رحمه الله الى الشرق، ونازل حصن ماردين وصاحبها يومئذ أرتق بن ارسلان بن ايل غازي بن أرتق، فملك السلطان العادل الربض بعد حصار شديد وقتال كثير، ثم شرع في حصار القلعة وذلك في العشر الاوسط من ذي الحجة، ولم يزل محاصرا لها الى ان خرجت السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن رحمه الله، وكان ملكا جليلا عظيم القدر، فقام بالملك باليمن بعده ولده الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب.

## سنة خمس وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك العادل رحمه الله محاصر قلعة ماردين ومضايقها وقد اشرف على اخذها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله،وحديث ذلك انه عزم على المضي الى الاسكندرية للاشراف على احوالها ثم المضي منها الى دمياط، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الماضية، فاتفق انه خرج من مخيمه عازما على التصيّد في الفيوم ثم العودة الى مخيمه، والرحيل بعد ذلك الى الاسكندرية فتوجه الى الفيوم فوصله في مستهل المحرم من هذه السنة ونزل بقرية يقال لها ذات الصفا، فاقام بها متصيدا الى سابع المحرم فرحل منها وهو يتصيد في طريقه فاتفق ان ذئبا خرج فركض في اثره فعثر به فرسه فسقط، ثم ركب وهو محموم، فعاد الى مخيمه وقد قويت

حماه، ودخل القاهرة في عاشر المحرم فبقي مريضا الى ليلة الحادي والعشرين من المحرم فانتقل فيها الى رحمة الله ورضوانه.

## سيرته رحمه الله

كان رحمه الله ملكا كريما رحيما حسن الأخلاق طيب الأعراق، شجاعاً، حسن العقيدة جميل الطوية، شديد الخوف من الله تعالى، محباً للعلماء، متكثراً بالفضلاء، كثير الاحسان اليهم والاستحضار لهم الى مجالسته، واستماع كلامهم، والعمل بما يشيرون به، سريع الانقياد الى الخير، كثير البذل مفرط السخاء تغمده الله برحمته، واسكنه الفردوس من جنته.

ولما توفي اجلس في السلطنة بمصر ولده الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب، واجتمعت عليه كلمة الأمراء، وامتنع عماه الملك المؤيد، والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن يكون الملك المؤيد أتابكه.

وعزم الملك المؤيد على المخالفة، واشترى اسلحة في الباطن فعقدت الأمراء مجلسا وحضر فيه: الملك المؤيد، والملك المعز، والملك الظافر، ثم طولب الملك المؤيد بالحلف، فامتنع فأغلظ له أخوه الملك الظافر وتهدده، فحلف كارهاً، وحلف أخوه الملك المعز، واستتب الأمر، واجتمعت الكلمة على أن يكون مدبر الأمر الأمير بهاء الدين قراقوش الى أن يصل السلطان الملك العادل فيفعل مايراه.

## استيلاء الملك الأفضل على الديار المصرية

ثم إن الأمراء كاتبوا الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك الناصر صلاح الدين ليصل اليهم، ويرتِّب أتابكا لابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز. فساق الملك الأفضل من صلخد الى مصر سَوْقاً حثيثاً، ودخل القاهرة لسبع مضين من ربيع الأول، فحلفت له الأمراء، ولم يبق لولد الملك العزيز معه إلاّ بالإسم، ومعنى السلطنة له.

ولما استقرت قدم الملك الأفضل بالديار المصرية كتب الى عمه السلطان الملك العادل، وهو على محاصرة قلعة ماردين يعزيه بالملك العزيز ويخبره أنه قد صار الى مصر، واستقل بتدبير أحوالها حفظا لدولة ولد الملك العزيز.

## قصد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق وحصارهما لها

ثم إن الملك الأفضل والأمراء اتفقوا على قصد دمشق وأخذها لغيبة الملك العادل عنها، وكاتبوا الملك الظاهر بذلك، فوافقهم وصار معهم، وأيضا الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه.

وتوجه الملك الأفضل من مصر بعساكره طالباً دمشق، ووصلت الأخبار بذلك الى السلطان الملك العادل رحمه الله، وهو على محاصرة قلعة ماردين، فرتَّب على حصارها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد، وسار الى دمشق محثا ليسبق الملك الأفضل إليها، فوصلها لإحدى عشرة

ليلة مضت من شعبان، وذلك قبل وصول الملك الأفضل اليها بيوم واحد.

ونازلها الملك الأفضل في ثالث عشر شعبان وفي رابع عشر زحف اليها، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملك البلد، وفتح له باب السلامة مخامرة من الأمير الذي كان يتولاه، فدخل جماعة من أصحاب الملك الأفضل المدينة من جملتهم الفقيه مجد الدين أخو الفقيه عيسى، ثم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصل غرضهم، والسعادة إذا كانت مقبلة لم يضر صاحبها شيء، ولو اتفق أهل الأرض قاطبة عليه.

وفي شعبان وصل الملك الظاهر من حلب، واتفق مع أخيه الملك الأفضل على حصاردمشق، ثم وصل المجاهد صاحب حمص وعسكر من عند الملك المنصور صاحب حماه نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصن بارين وصاحبه الأمير عز الدين ابراهيم ابن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل ومن أصحابه، فنصب عليه المجانيق، وحاصره بقية شهر رمضان وشوال وذي القعدة، وفتحه لليلة بقيت من ذي القعدة، بعد أن جرح الملك المنصور جراحة مثخنة.

## سنة ست وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل نور الدين وأخوه الملك الظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها عمهما السلطان الملك العادل رحمه الله، ولما كان اليوم العاشر من شهر ربيع الأول وصل السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل بمن معه من العساكر الى دمشق، فاستظهر به أبوه السلطان الملك العادل، وضعف بذلك قلب الملك الأفضل والملك الظاهر، ثم تأخرا عن دمشق رحلة، ثم رحل

الملك الظاهر جريدة الى حلب في البريَّة، وذلك لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، لشغب واختلاف وقع بينه وبين أخيه.

ولما رحل الملك الظاهر رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبا بها، وأعاد ولده الملك الكامل في عساكره إلى حران، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله متَّبعاً لابن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك الأفضل من منزلة، نزلها السلطان الملك العادل.

## كسرة الملك الأفضل بالسايح

ثم التقى العسكران عسكر الملك العادل وعسكر الملك الأفضل بموضع يقال له السايح، وكانت أكثر العساكر الأفضلية مخامرين على صاحبهم في الباطن، فلما وقع القتال انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل أقفيتهم الى أن وصل البركة فنزل بها مخيما ثمانية أيام، والرسل تتردد بينه وبين ابن أخيه الأفضل.

## استيلاء الملك العادل على مصر

وآخر الأمر أنه تقرر أن السلطان الملك العادل يملك مصر، وينعم على الملك الأفضل بميافارقين وحاني وجبل جور وغيرها.

ثم دخل السلطان الملك العادل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، واستتب له الأمر، وصفت له المملكة بالديار المصرية

ودمشق وأعمالها، وتوجه الملك الأفضل بأهله الى صرخد، فأقام بها وبعث نوابه ليتسلموا ديار بكر فتسلموا ماوقع الاتفاق عليه، إلا ميافارقين، فإن الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل لم يوافق على تسليمها إليه، وظن الملك الأفضل أن ذلك بمواطأة من عمه، فتوجه الى حلب مستصرخا بأخيه الملك الظاهر.

ولما ملك السلطان الملك العادل مصر كرهت الأمراء الصلاحية ذلك، وشق عليهم خروج الأمر عن ولد الملك الناصر صلاح الدين، فكاتبوا الملك الأفضل سراً، ووعدوه القيام معه وبذل الجهد في نصرته.

وكان الأمير عز الدين سامة أميراً على ج في تلك السنة، فلما عاد اجتمع به الملك الأفضل وأخبره بمكاتبة الامراء له، واستحلفه فحلف له كرهاً، وكتب الى الملك العادل يخبره بموافقة الأمراء الصلاحية للملك الأفضل ومكاتبتهم له، فشكره العادل على ذلك

## سنة سبع وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك العادل بالديار المصرية متملك لها، وبدمشق ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبا عنه، والملك الأفضل بحلب عند أخيه الملك الظاهر مستنصراً به على عمه العادل، ووصلتهما كتب الأمراء الصلاحية يستحثونهما على قصد دمشق، وأخذها ويعدونهما بالنصرة والمعاضدة، ومن جمتهم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجا، والأمير عماد الدين ابن المشطوب وميمون القصري، وغيرهم، وتحالف هؤلاء الامراء سراً على رد الأمر الى أولاد الملك الناصر وتمليكهم ماأخذ منهم وشاركهم في سرّهم الأمير عز

الديـن سامة وأوهمهـم أنه من جملتهم، وجعـل يكاتب السلطـان الملك العادل بأسرارهم ومايتجدد لهم.

ثم سار الملك الظاهر الى منبج وصاحبهـا شمس الدين عبد الملك بن شمس الدين بـن المقدم، وكان في خدمة الملك العـادل، فتسلمها وقبض على صاحبهـا شمس الـدين، ثـم سار الى قلعـة نجم، وكـانت لشمـس الديـن أيضاً فتسلمها، وراسل الملـك المنصور صاحب حماه، وطلـب منه أن يكون معـه فلم يجبـه الملك المنصـور الى ماطلـب، وأبى إلا الانتماء الى السلطان الملـك العادل، والاستمـرار على طاعتـه ومتابعتـه، فسار الملـك الظـاهر الى المعـرة واستـولى على ماكـان بها مـن الحواصـل ثم مضـى الى كفرطاب فنزل بها وسيرَّ الى نائب شمس الديـن بن المقدم بأفاميه يتهدده ويتواعـده إن لم يسلم إليـه الحصن فلـم يفعل، فسـار الملك الظـاهر إلى أفاميـة فنزلها واستحضر شمس الـدين بـن المقدم، وأمر بـه فضرب ضرباً مبرحاً بمرأى من أهـل الحصن ليسلم نوابه الحصن، فلـم يجد ذلك شيئا، فرتـب على حصارها عماد الـدين بـن المشطوب، ثم سـار الى حماه فنازلها مدة، ثم وقعت بينه وبين صاحبها الملك المنصور هدنة على شيء بذله له الملك المنصـور، أنَّ الملك الظـاهر والملك الأفضـل إذا أخذا دمشـق كان الملك المنصور في خدمتهما.

## منازلة الملك الظاهر والملك الأفضل دمشق

ثم رحل الملك الظـاهر ومعه أخوه الملك الأفضل الى دمشـق فنازلاها، وبلغ ذلك السلطـان الملك العادل وهو بـالديار المصرية، فسـار منها الى نابلس فأقام بها.

وبينما الملك الظاهـر والملك الأفضل محاصران لدمشـق إذ قفز الأميران

فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وكانا في عسكر الملك الظاهر الى الملك العادل، فتناقصت عند ذلك أمور الملك الظاهر والافضل.

وكاتب الملك العادل في السر أكابر الأمراء الذين معهما، فوعدهم السلطان الملك العادل، وسوفهم، واصلح قلوبهم له وأفسدها على الملك الظاهر والملك الأفضل.

## سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملكان الأفضل والظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، ووالده العادل نازل بنابلس، وقد تخذل أصحاب الظاهر والأفضل وضعفت شوكتهما،وكلّ حدهما، ووقع الخلفُ بينهما، وذلك أن الملك الظاهر قال سراً: إن أخذت دمشق أخذتها لنفسي ولا أعطيها لأخي الملك الأفضل، فراسل الملك الأفضل عمه السلطان الملك العادل ماكان عينه له من البلاد الشرقية، وان يعطيه في كل سنة مئة الف دينار، نصفها عينا، ونصفها عروضا، فتحالفا على ذلك سراً، وشاع في العسكر أمر الصلح من غير وقوف على حقيقة تفصيله فتخاذلوا وضعف أمرهم.

ثم رحل الملك الظاهر لما رأى اضطراب الأحوال وذلك في أول محرم ومعه فارس الدين ميمون القصري، وعماد الدين بن المشطوب، وسراسنقر. ورحل الملك الأفضل الى الشرق، ودخل السلطان الملك العادل رحمه الله دمشق، وكان يوما مشهودا. وكان الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل قد تسلم منبج في غيبة الملك الظاهر، فتسلمها الملك الظاهر لما عاد، واقطعها لعماد الدين بن المشطوب، وتسلم أفاميه من نواب شمس الدين بن المقدم على عوض اقطاعها.

- ١٠٠١٦ -

## سنة تسع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق الى حماه فنزلها، وجرت بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر مراسلات آخرها أنه وقع الصلح بينهما وتحالفا على أن يكون للسلطان الملك العادل دمشق والسواحل وأعمال البيت المقدس، والديار المصرية، ومابيده، وبيد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماه والمعرة ، وسلمية، وباريـن، وللملك المجاهد أسد الدين حمص والرحبة وتدمر، وللملك الأمجد بعلبك وأعمالها.

ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل الى حمص ونزل على بحيرة قدس وعين لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى حرَّان والرَّها، ولولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين، ولولده الملك المعظم شرف الدين عيسى السواحل وأعمال البيت المقدس، ولولده السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد الديار المصرية.

وكان في اليمين المقترحة على الملك الظاهر ان يقطع خبز عماد الدين ابن المشطوب ولايستخدمه، فقطع الملك الظاهر خبزه، فصار الى السلطان الملك العادل فلم يستخدمه، وقال تخدم بعض أولادي، فقصد الملك الأوحد فلم يستخدمه واستخدمه الملك الأشرف وحلف له على أربعمائة فارس وخبزها من بلاد ماردين إذا فتحها، فقصدها عماد الدين، واستحضروا الملك الأفضل نور الدين وأخذوا رأس عين من صاحب ماردين، وسلمها ابن عمه الأشرف إليه، وساروا الى ماردين، فبعث صاحب ماردين الى الملك الأشرف خمسين الف دينار ليرحل عنه، وعاد الى حران وأعطى الملك الأفضل جملين، ثم أخذ منه كل موضع وقع التقرير عليه، ولم يترك له غير سميساط، فأقام بها الى أن مات.

وفي هـذه السنة كـان مقتل الملـك المعـز إسماعيل بـن سيف الاسـلام طغتكين بن أيـوب بن شادي صـاحب اليمـن، وكان قد ادعـى الخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين، وزعـم أن نسبه ينتهي الى بني أمية، وجـرى له مع مماليـك أبيه خبط كثير، وتحزبـوا عليه، وآخر الأمـر أنه وثب عليـه جماعة مـن الجند، فحمـل عليـه أحـدهم، وكـان راكبـاً على بغلـة وعليه ثيـاب الخلافة طول الكمِّ قريباً من عشريـن شبراً وسعته قريب من ستة، فنفرت البغلة ورمته فتخبط في ثيابه وأكمامه، فنـزلوا إليه فقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح وداروا بـه في بلاد اليمن وملكـوا عليهم سيـف الدين سنقـر، مملوك سيف الاسـلام، فجند الجنود وحشـد الرجال وقصد مـن خالفه، فـأعطي النصر عليه، وتمهدت له بلاد اليمن وقتل جماعة كبيرة من الأمراء.

وكان الملـك المعز قـد خلف ولـداً صغيراً، فلقبه سيـف الديـن سنقر الملك الناصر، وخطب له بالسلطنة في بـلاد اليمن، وتزوج أمه، وأظهر أنه أتابكه وحافظ دولته، فبقي كذلـك مدة اربع سنين، ثم توفي سيف الدين سنقر، وخلف ولداً صغيراً من أم الملك النـاصر بن الملك المعز، فتزوج بها بعد وفاة سيـف الدين غازي بن جبريـل أحد امراء تلك الـدولة، وغلب على البلاد.

وبقي الملك الناصر مدة، ثم سمَّ في كوز فقاع، فمات وبقي غازي ابن جبريل مدة بعـد ذلك، ثم قتلته حمير وخولان وجماعة مـن العرب، وذلك لأنهم اتهموه بـأنه هو الـذي قتل الملك النـاصر، فقتلوه به، وبقيـت بلاد اليمن بغير سلطان.

وكانت أم الملك الناصر حاكمـة على زبيد، فقصدها الشريف عبد الله ابـن عبد الله الحسنـي، وكان متغلبـاً على بعـض تلك البـلاد، فلم يظفـر بطائل، ورجـع الى بلاده، واتفق أنه قـدم الحاج وفي جملتهم الأمير سليمان شاه بن سعـد الدين شاهـان شاه بن الملك المظفـر تقي الدين عمـر بن

شاهان شاه بن أيوب بزي الفقراء، فأعلمت به أم الملك الناصر فخلعت عليه وتزوجته، وسلمت اليه البلاد فملأها ظلماً وجوراً وفسقاً وتجبراً.

وكتب الى السلطان الملك العادل رحمه الله كتاباً يقول في أول: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١٦].

واهتم السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بأمره، فسيرَّ الى اليمن ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة بعسكر، ففتح بلاد اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به الى مصر تحت الحوطة فاعتقل بها، ثم أفرج عنه بعد مدة.

ودوخ الملك المسعود بلاد اليمن حتى أطاعه أهلها، وكان شجاعا أبي النفس عالي الهمة، واعلم ان هذه الحوادث وإن وقع اكثرها بعد هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين فإنما قصد سياقة الحديث دعانا الى ذكرها كراهة أن يتبتر.

## سنة ستمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على يد السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك العادل رحمهما الله، وحديث ذلك أنه خرج نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الى قتال الملك الأشرف، ولما بلغ الملك الأشرف ذلك كتب الى والده الملك العادل، وكان نازلاً بخربة اللصوص يستشيره فيما يفعله، فكتب اليه يشير عليه بأن لايضرب مع صاحب الموصل مصافاً وحذَّره من ذلك غاية التحذير، وسار السلطان الملك الأشرف رحمه الله

الى دارا، فنزل بها واستدعى اخاه الملك الأوحد من ميافارقين، وصاحب آمد وصاحب الجزيرة، ورحلوا قاصدين باشزى[١٧] ووصل نور الدين الى باشزى بجموعة قبلهم، وبعث إلى السلطان الملك الأشرف رسولاً يطلب منه المصاف.

ثم وقع القتال فحملت المواصلة على عساكر الملك الأشرف فزحزحتها قليلاً، وحملت عساكر الملك الأشرف بعد ذلك عليهم فكانت الهزيمة، وأباح الله تعالى الملك الأشرف أكتافهم فاستولوا عليهم قتلاً وأسراً ، ودخل نور الدين الموصل هزيماً، ثم جرت بينه وبين الملك الأشرف مصالحات واتفاقات.

وقد كان الملك الأشرف رحمه الله مقرونة برایاته السعادة أين توجه، وكانت هذه الوقعة أول سعاداته وعنوانها.

## سنة ثلاث وستمئة

في هذه السنة نزل السلطان الملك العادل رحمه الله على البحيرة بظاهر مدينة حمص، واستدعى ابن اخيه الملك المنصور صاحب حماه، وابن أخيه الملك الأمجد صاحب بعلبك، ووصل عسكر آمد وسنجار وحلب، ودخل الساحل فأخرب القليعات وأحرق ونهب للفرنج شيئاً كثيراً.

## سنة أربع وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل الى دمشق، فأقام بها وأمر

بتجديد عمارة قلعتها، ووظف على كل ملك من ملوك أهل بيته وأكابر أمرائه برجاً، فعمروها بأموالهم خدمة له.

## سنة ست وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله الى سنجار، ومعه ملوك أهل بيته بعساكرهم فأقام محاصراً لها مدة طويلة ثم عاد عنها ولم يظفرمنها بشيء، ودخر الله تعالى فتحها لولده الملك الأشرف، فإنه فتحها سنة سبع عشرة وستمئة، وبعد رحيل السلطان عنها سيرَّ ولده الملك الأشرف، وفي خدمته ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه الى نصيبين ففتحها، واستولى عليها، وكانت لصاحب الموصل.

## سنة سبع وستمئة

في هذه السنة قبض السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل على الأمير عز الدين سامة واعتقله بحصن الكرك، ونازل حصْنَيه عجلون وكوكب، وكان قبل ذلك قد طلبهما منه على أن يُعَوَّض عنهما الفيوم من أعمال مصر فامتنع ففتح الملك المعظم حصنيه واستولى عليهما.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل بأخلاط، وكان قد استولى عليها وعلى حصونها ومعاقلها.

- ١٠٠٢١ -

## استيلاء الملك الأشرف على أخلاط

وكان الملك الأوحد رحمه الله لما احتضر كاتب أخاه السلطان الملك الأشرف ليحضر عنده، فمضى اليه وأقام عنده مدة، فاتفق أن الملك الأوحد تعافى من مرضه، وتكامل بُرْؤُهُ. فودَّعه الملك الأشرف عازماً على العود، فأخبره منجم أخلاطي، كان عند الملك الأوحد بأن الملك الأوحد يموت لامحالة ونهاه عن المضي، فأقام اسبوعاً فمات الملك الأوحد في ذلك الاسبوع، فاستتب الملك بأخلاط للسلطان للملك الأشرف شاه أرمن موسى بن الملك العادل، وأقبلت السعادة له من كل جانب.

## سنة عشر وستمئة

في هذه السنة ولد السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وأمه خاتون ابنة السلطان الملك العادل.

## سنة ثلاث عشرة وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الظَّاهر غياث الدين ايل غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة وعمره أربع وأربعون سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه بحلب احدى وثلاثين سنة.

سيرته:

كان رحمه الله ملكا جليل القدر، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الاحسان إليهم والمحبة واستجلاب قلوبهم، والتكثر بأماثلهم وأكابرهم،

حتى أنه كان إذا مرض أحد من أكابر أهل بلدة ومعمميهم عاده بنفسه وافتقده بالنفقات، ومتى عوفي من المرض خلع عليه.

وكان له سماط في شهر رمضان يحضره غالب فقهاء البلد، وكان في الأعياد يجلس في الهناء، ويسمع من الشعراء مدائحهم، ويمد سماطاً عظيماً، يحضره غالب الناس، ويخلع على الأعيان والأمراء وأرباب البيوتات.

ولما توفي الملك الظاهر رحمه الله عقد الملك بحلب لولده السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وعمره يومئذ سنتان وكسر بوصية أبيه إليه في ذلك، وترتَّبَ أتابكاً له الأمير شهاب الدين طغريل خادم أبيه، فضبط المملكة، ونشر العدل، وأكثر من الاحسان الى الرعايا، وقام بحفظ مملكة الملك العزيز أحسن قيام.

## ذكر بدء ظهور التتر لعنهم الله

كان السلطان خوارزم شاه محمد بن السلطان خوارزم شاه تكش قد تملك ماوراء النهر، وكان هؤلاء الطائفة المعروفون بالتتر مقيمين بصحراء متاخمة بلاد الصين، يقال لها جين ماجين، فاتفق أنهم ملكوا من : بلاساغون مدينتي طمغاج وكاشغر، فقويت شوكتهم بذلك، وكانت هذه البلاد متاخمة لسمرقند وهي يومئذ بيد خوارزم شاه، فوقعت الحرب بينهم وبين خوارزم شاه مدة قبل هذه السنة، فقلت عندهم المؤن والنفقات ومنع خوارزم شاه من نقل شيء منها إليهم، فبعث ملك التتر واسمه جنكيزخان رسلاً ثلاثة، وصحبهم تجار منهم على خوارزم شاه، وبعث الى خوارزم شاه فأعلمه بهم، فبعث خوارزم شاه من قتلهُم سوى رجل واحد، وأظهر خوارزم شاه أن ذلك وقع بغير أمره. ونهب متوليّ أطرار ماكان مع أولئك التجار، وكانوا أربعين تاجراً ومعهم مئة وخمسون فرساً عليها فضة نقرة ليبتاعون بها مايحتاجون اليه من السلع والبضائع.

ولما بلغ ذلك ملك التتر بعث الى خوارزم شاه ينكر عليه هذا الفعل ويتهدده إن لم يبعث اليه بأولئك الرسل والتجار أحياء، فقطع خوارزم شاه أطراف رسله، وقال: مالكم عندي إلا هذا الفعل. فاجتمعت التتر في عالم لايحصى، وقصدوا بلاد الاسلام وهؤلاء القوم كفار يعبدون الشمس، ولايعتقدون صحة شيء من الشرائع، وقد ذكر أن عدة جمعهم كان يومئذ أربعئمة الف مقاتل، وافترقوا ثلاث فرق، فخرج خوارزم شاه في سبعين ألفاً فضرب مع ملك كاشغر، وهو احد ملوكهم مصافاً وكان عدة من معه أربعين ألفاً، فهزم أصحاب ملك كاشغر وأسره خوارزم شاه وقتله.

ثم طلب خوارزم شاه من ابن ملك التتر جنكيزخان أن يضرب معه مصافاً فامتنع وقال: مامعي أمر من والدي بذلك، فألحَّ عليه خوارزم

شاه فاندفع ابن كشلو خان قدامه مسيرة ثلاثة أيام، ثم ردت التتر على خوارزم وأصحابه فهزموهم أقبح هزيمة، وطمعت التتر عند ذلك في البلاد الاسلامية، فبعثوا الى بخارى عشرة آلاف فارس فنازلوها وحاصروها حصاراً شديداً ثم فتحوها بعد ثلاثة أيام وبذلوا السيف في أهلها فأبادوهم وعصت القلعة عليهم خمسة أيام ثم فتحوها وقتلوا من كان بها وهدموها، وكان ببخارى من العلماء والأكابر مالايحصى كثرةً، فذهب أكثرهم تحت السيف، ثم مضوا الى سمرقند فأخذوها بالسيف وقتلوا جميع اجنادها وعوامها وفقهائها، وهذه مدينة لم يكن بما وراء النهر مدينة أعظم منها.

وأما خوارزم شاه فإنه صار الى ترمذ، فاختلفت أصحابه، وتحالفوا على قتله لما رأوا من استيلاء الكفار عليه وغفلته عنهم، وعزموا على تمليك شخص منهم يقوم بذب الكفار عن حوزة المسلمين، فاطلع خوارزم شاه على ماأجمعوا عليه، فانهزم الى نيسابور واتبعه أجناده يطلبون قتله، ثم انهزم الى همذان وهم في اثره، ثم انهزم منها وساق سوقاً حثيثاً في البرية فأدركته منيته على شاطىء البحر فدفن هناك لاأحسن الله عن الاسلام جزاءه، فلقد كان هلاك معظم بلاد الاسلام على يديه وبسببه، وقصد ولده جلال الدين منكبرتي بن محمد مدينة خوارزم فلم يفتح له بابها، فعاد الى نشاوور، وأقام بها أياماً فالتقاه التتر فكسروه كسرة قبيحة، وأخذوا ماكان معه، وانهزم الى هراة وهم في أثره فمضى الى غزنة فلقيه رجل من أهل بلخ فسأل جلال الدين أن يعطيه العسكر ليصافَّ بهم التتر فأعطاه إياه، فصاف البلخي التتر فهزمهم، فحسده جلال الدين على ذلك فقتله، فسلط الله تعالى الكفار على جلال الدين فهزموه الى ماوراء السند، واستولى الكفار على بلاد العجم، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً، فهذا مابلغني من ذكر ابتداء أمرهم.

ثم إن جلال الدين بعد ذلك عاد الى بلاد العجم وجمع خلقاً عظيماً،

ثم إنه قصد أخلاط وملكها على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، فقصده السلطان الملك الأشرف وكسره وفَلَّ جمعه، ثم كانت بعد ذلك بينه وبين التتر حروب كان الظفر فيها للتتر، وانهزم منهم جلال الدين نحو آمد، وديار بكر، فقيض الله من اغتاله وأراح المسلمين منه، فإنه وأباه كانا على الناس شراً من التتر لما كان يبدو منهما من الظلم الفاحش وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات وإخراب البلاد واهلاك الحرث والنسل.

ولم تزل شوكة التتر تعظم وأمرهم يتفاقم الى أن ملكوا أصبهان، وكانت قد امتنعت عليهم مدة طويلة، فقتلوا من أهلها مقتلة عظيمة، ثم قصدوا إربل فحاصروها، ثم ملكوها وقتلوا جميع أهلها، ثم قصدوا العراق فقام الخليفة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله نصره بقتالهم، وتشمر لحربهم والأمر على ذلك الى وقتنا هذا، فنسأل الله تعالى أن يعجل دمارهم وهلاكهم، وينزل جنود النصر على مولانا أمير المؤمنين وأن يحسم بطول بقائه مادة الكافرين آمين.

ولولا خشية خروج هذا المختصر عن حَدِّهِ لذكرنا أمورهم جميعها، لكنَّا كرهنا ذلك لطولها، ولأنها أيضاً معلومة لقرب العهد بها.

## سنة خمس عشرة وستمئة

في هذه السنة خرج سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان طالبا بلاد الشام ليملكها، واظهر أنه إنما خرج نجدة للملك الأفضل نور الدين ابن الملك الناصر صلاح الدين، فوصل الى تل باشر، وكانت بيد الأمير بدر الدين دلدرم الياروقي فنازلها وفتحها وتسلمها لنفسه، وكان الملك الأفضل يعتقد أنه كلما استولى سلطان الروم على بلد سلمه اليه، فلما

تسلم تـل باشر لنفسه اعتـذر إلى الأفضل بأن تـل باشر ليست مـن بلاد الظاهر ولامن بلاد إخوته.

ولما بلغ شهاب الدين أتابك الملك العـزيز صاحب حلب أمر سلطان الروم، بعـث الى السلطان الأشرف موسـى ابن الملك العـادل يستنصر به، وكـان يومئـذ بظاهـر مـدينة حمص في مقـابلـة الفرنـج، فتوجـه رحمه الله بعساكره للقاء سلطان الروم، فانهزم منه سلطان الروم طالباً بلاده.

وساق السلطان الملك الأشرف تبعاً له الى أن أخـرجه من بلاد الشا م، وتسلَّم تل باشر، ورعبـان، وسلمها الى شهاب الدين أتابـك، وكانت هذه النوبة مـن سعادات الملك الأشرف العجيبة ووقعـاته الغريبة، فـإن الملك الأشرف يومئذ كان في جمع قليل، وكـان سلطان الروم في جموع كثيرة العدد غـزيـرة المدد، ولم يكن في ظـن أحـد أنـه يَفُـلُّ حـدَّهُم بهذا الجمـع بـل ولابأضعافه.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة السلطان الملـك العادل سيف الـدين أبي بكر بـن أيوب قدس الله روحه بمخيمـه بخربة اللصوص، وذلـك بعقب خروج الفـرنج خـذلهم الله تعالى ووصـولهم الى الغور قـاصديـن الاستيلاء على البيت المقدس واسترداد ماأخذ منهم من البلاد الساحلية.

ولما توفي السلطـان الملك العـادل كُتم مـوته إلى أن أدخـل في محفة الى قلعـة دمشق، ودفـن بها، ثـم أُظهـر موتـه، وجلـس ولـده الملك المعظـم للعزاء، وكانت مـدة عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه من حين ملـك مصر واستتب له الأمـر ثمان عشرة سنة وشهوراً، وكـانت وفاته في جمادى الآخرة.

سيرته رضي الله عنه:

كان رضي الله عنه جميل السيرة، حسن الطويّة، وافر العقل حازم الرأي، كثير التجارب، ذا معرفة بدقائق الأمور، مواظباً على أداء المفترضات والنوافل، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأوامر الشرع المطهرَّ منزجراً بزواجره، حسن العقيدة محباً للدين وأهله، متبعاً للسنة كارهاً للبدعة، مبالغاً في إطفاء نارها وإخفاء منارها، كثير التلاوة والصيام والقيام على كبر سنه، مجاهداً في سبيل الله عز وجل، ذاباً عن دينه، مائلاً الى العلماء وأهل الخرق، وكان مع ذلك مسعوداً في جميع أموره مظفراً على من ناوأه منجحاً في كل أمر قصده ونواه.

ومن جملة سعادتهُ أنه خلَّفَ أولاداً لم يخلف أحد من الملوك مثلهم في بسالتهم وإقدامهم، وعظم شأنهم، وجلالة قدرهم وبعد صيتهم، وعلو هممهم، وهيبة أهل الأرض قاطبة لهم، كل منهم إذا جُردَ النظر إليه ظُنَّ أنه أفضل أهل دهره، وأنه لاشبه له في عصره:

من تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدهم
مثل النجوم التي يَسْرِي بها السَّاري

ولما توفي السلطان الملك العادل استقر في السلطنة بعده ولده السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب، فخطب له إخوته وهم أهل بيته، في بلادهم، وضربوا السكة باسمه.

وأما الذي كان يختص به من البلاد عند موت والده فالديار المصرية، وبلاد اليمن، ونائبه بها ولده السلطان الملك المسعود وقد ذكرناه.

واستقر في الملك بدمشق وأعمالها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى، وببلاد الشرق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن موسى.

- ١٠٠٢٨ -

# نزول الفرنج على دمياط

وفي هـذه السنة نـزلت الفـرنج على دميـاط، وزحفوا إليهـا براً وبحـراً فخرج السلطان الملك الكامل رحمه الله لقتـالهم فنزل في دمياط المقابل لها الى بورة[١٨]،ونزل الفرنج في الجانب الآخر والنيل بين الفريقين.

وكـان نزول الفـرنج على دميـاط لثلاث مضين مـن شهر ربيـع الأول، وذلك قبل وفاة السلطان الملك العادل بثلاثة أشهر وأربعة أيام.

واشتد زحف الفـرنج على دمياط ومحاصرتهم لها، وكـانت أكثر عساكر المسلمين قد جهـزوا خيولهم الى الـربيع، وبقـي اكثرهـم رجالـةً فضعفت نفوسهم بسبب ذلك، وخافوا من عـدوهم، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيـم ليلاً إلى أشمون، ولما أصبح الصباح دخل الفرنج مخيم المسلمين واستولوا عليه، واحتاطوا بدمياط وأحدقوا بها براً وبحراً، فعظم البلاء واشتدت الرزيَّة.

وأما السلطان رحمه الله فإنه لما وصـل إلى أشمون أخرج الأموال وأنفقها في الناس، وعـوضهم عما ذهـب منهم، ثـم وصل أخـوه السلطان الملـك المعظـم صاحـب دمشـق بعسكر كثير مـن فـارس وراجـل، فاجتمعـت العساكـر الاسلامية، وعـادت الخيول مـن الربيع فعـاد السلطان رحمه الله فنازل الفرنج، والفرنج منازلون دمياط.

ونشب القتال بين الفـريقين، وحفر الفرنج عليهـم خنادق يمتنعون بها من السلطان، وجدوا في حصار البلد ومضايقته الى أن خرجت السنة.

## سنة ست عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والمسلمون محدقون بـالفرنج محاربون لهم، والفـرنج محاصرون لدميـاط، وقد اشتدت مضايقتهـم لها، فقَلَّتِ الأقوات بـدمياط حتى هلك أكثر أهلها، وضعفوا ووقع فيهم الوباء والفناء.

استيـلاء الفرنـج على دميـاط: ولما طالـت مـدة الحصار على دميـاط، وعدمت عندهـم الميرة، وكثر الوباء عندهم حتى هلـك أكثر مقاتليهم لم يبق لأهـل البلد منعـة، ولابمصابـرة العدو طـاقة، وزحـف الفرنـج اليها فملكوهـا واستولـوا عليها، واسترقُّـوا من وجـدوه بها وذلك يـوم الثلاثـاء لخمس بقين مـن شعبان فكانت مـدة حصار الفرنج لها ستـة عشر شهراً واثنين وعشـريـن يومـا. .

ولما ملـك الفـرنـج دميـاط تـأخـر السلطـان رحمه الله بـالمسلمين الى جوجر[١٩]فنزل هنـاك وبنى بها دوراً وأمـر الناس بـالبناء فصـارت هناك مـدينـة عظيمة وسماهـا المنصـورة، وأعطـى أخـاه الملك المعظـم دستـوراً بالمضي الى الشام، وبجمع العساكر لجهاد العدو.

## سنة سبع عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والفرنج خـذلهم الله متملكون لدميـاط، والسلطان رحمه الله بمنزلته المسماة بالمنصورة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المنصـور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقـي الديـن صاحـب حماه، وذلك لثـلاث بقين من ذي القعـدة، فكانت مدة عمره خمسين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه تسعاً وعشرين

سنة وشهوراً، فعُقد الملك بحماه بعده لولده الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، ولم تكن الوصية بالملك إليه، وإنما كانت لأخيه الملك المظفر تقي الدين محمود الذي هو ملكها اليوم، لكنه كان عند وفاة أبيه بمصر عند خاله السلطان الملك الكامل رحمه الله، وكان الملك الناصر قلج أرسلان بدمشق، فاستحضره زين الدين وزير صاحب حماه، واستحلف الناس له، وملكه على بلاد أبيه وهي حماه والمعرة وسلمية وبارين.

## سنة ثمان عشرة وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق الى أخيه السلطان الملك الأشرف مظفر الدين رحمهما الله مستنجداً به على الفرنج خذلهم الله، فجمع السلطان الملك الأشرف العساكر، وجاءتهما نجدة صاحب ماردين، ثم سار الى حمص مخيماً على البحيرة، ووصلهم عسكر حلب، والملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ثم توجهوا قاصدين الديار المصرية نجدة للسلطان رحمه الله.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا من دمياط ونازلوا السلطان في المنصورة وبينهم وبينه بحر أشمون، واستمر القتال بين الفريقين براً وبحراً.

## فتح دمياط

ولما وصل السلطان الملك الأشرف والملك المعظم بمن معهما من

العساكر، بعث السلطان في بحر المحلة أسطولاً فدخلوا الى بحر دمياط ليمنع المسيرة عن الفرنج، وأمر السلطان فبنيت الجسور عبر عليها المسلمون الى جزيرة شر مساح التي الفرنج مخيمون عليها.

وكان الفرنج قد عزموا على الرحيل في الليل، فأحاطت بهم العساكر وقد دخلوا أرض السرمون، ودارت الحرب بينهم وبين المسلمين، ووقع أسطول المسلمين من كل جانب على أسطول الفرنج خذلهم الله وشوانيهم، وقُتل منهم خلق عظيم حتى لم يبق لهم سبيل الى الهرب بوجه من الوجوه، وأيقنوا بالهلكة فراسلوا السلطان الملك الكامل رحمه الله يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم اطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد وتقرر بينهم صلح عام مدة ثمان سنين.

وتسلم السلطان دمياط لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، فكانت مدة تملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان هذا الفتح أعظم الفتوح وأجَلِّها، فإنهم لو استمر تملكهم لها لكان ذلك سبباً لاستيلائهم على أكثر البلاد الاسلامية، لكن أبى الله تعالى إلاإعزاز هذه الملة ونصرها، وجعل ذلك على يد أهل البيت الأيوبي الذين استنقذ الله تعالى بسلفهم بيته المقدس من أهل الطغيان، وترجو أن يقُر بفتحه على أيدي خَلَفِهم عيون أهل الإيمان آمين.

ولما تسلم السلطان رحمه الله دمياط دخلها المسلمون وأقيمت الجمعة بها يوم الجمعة لسبع بقين من رجب، فَضَجَّ المسلمون بالبكاء من فرحهم، وأكثروا من الثناء على الله سبحانه شكراً على ماأولاهم من هذه النعمة التي يعجزون عن بلوغ شكرها، وتكلُّ ألسنتهم عن وصف كُنْهِ قدرها.

## سنة تسع عشرة وستمئة

في هـذه السنة قصـد السلطـان الملك المعظـم صـاحب دمشـق حماه، فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة.

وكان الملـك المعظم قـد أظهر أنـه لم يأت للمحـاربة وإنما أتـى طلباً للمجاهـد إقبال، وهـو أمير من أمـراء السلطان الملـك الكامـل كان قـد هرب منه، وتقدم الى أخيه الملك المعظم بطلبه.

ولمَّا جرى ماذكرنـاه من احتفاظ الناصر صاحب حماه بـالأسوار، وغلقه الأبـواب في وجه خـاله الملـك المعظـم، اتخذ ذلك الملـك المعظم حجـة وسيلة الى الاستيـلاء على بلاده، فمضـى الى سلمية وشحنهـا، ثم مضـى الى المعرةوقبض ماكان بها مـن الحواصـل وشحنهـا أيضاً، ثـم مضـى إلى سلمية فأقام بها الى أن خرجت السنة.

## سنة عشرين وستمئة

في هذه السنـة وصلت كتب السلطـان الملك الكامـل والملك الأشرف إلى أخيهما الملك المعظـم، وهو بسلميـة، ينكران عليه مـافعل مـن قصده صاحب حماه وتشحينـه على بلاده، فاعتذر إليهما، ثـم عاد الى دمشق وفي قلبه أثر مـن ذلك، فكاتب أخاه الملـك المظفر شهاب الديـن غازي ابن الملـك العـادل صاحـب ميـافـارقين، وكـان نائب أخيـه الملـك الأشرف بأخـلاط يدعوه الى مخالفة الملـك الأشرف والعصيان عليه، وكاتـب أيضاً مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك أيضاً واستمالـه إليه.

- ١٠٠٣٣ -

## سنة إحدى وعشرين وستمئة

في هـذه السنة عصـى الملك المظفـر شهـاب الديـن غازي على أخيـه السلطـان الملك الأشرف بـأخـلاط، وجمع عسكـراً كثيفاً فقصـده الملـك الأشرف، وخرج السلطـان الملك المعظم في عساكـره الى العطنة[٢٠] فنزل بها طالبـاً أن يمنع الملـك الأشرف من قصـد أخيه شهـاب الديـن غازي فلم يقـدر على ذلك، والتقى الملك الأشرف وأخـوه شهاب الديـن غازي فكسره الملـك الأشرف رحمه الله تعالى كسرة قبيحـة وتسلَّـم أخلاط، وعفـا عن أخيـه الملك المظفـر شهاب الـدين وأبقـى عليه ميـافارقين، ثـم عاد السلطان الملك المعظم الى دمشق وسيرَّ ولده الملـك الناصر صلاح الدين داود الى إربل، وتحالف هو وصاحبها مظفر الدين بن زين الدين واتفقا.

وفي هذه السنـة كانت وفاة الملـك الأفضل نور الديـن أبي الحسن علي ابن الملـك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب رحمه الله بسميساط رحمه الله، مولده في سنـة أربع وستين وخمسمئة فكان عمره قريبـاً من سبع وخمسين سنة.

كان عنده رحمه الله فضـل وأدب، غير أنه كان فاقداً للسعـادة، ناقص الحظ، ولـه أشعار حسنـة جيدة مـن جملتها قـوله يخاطـب الخليفة الإمـام الناصر لـدين الله في أول كتاب كتبـه إليه يشكـو إليه فيه عمـه السلطان الملك العادل، وأخاه الملك العزيز عثمان حيث أخذا منه دمشق.

مـــولاي إنَّ أبـــا بكـــر وصـــاحبَـــهُ
عثمان قـــد أخـــذا بـــالسيْـــفِ إرث علي
فـــانظـــر الى حَـــظِّ هـــذا الاســـم كيـــف لقـــى
مـــن الأواخـــر مـــا لاقـــى مـــن الأولِ

فأجابه الخليفة الإمام الناصر عن كتابه بكتاب كتب في أوله:

وافى كتابك يابن يوسف معلناً
بالصدق يُخبر أنَّ أصلك طاهر
غصبوا عليّاً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

وللملك الأفضل رحمه الله في هذا المعنى:
أما آن للسعد الذي أنا طالب
لإدراكه يوماً يَدِيْ وهو طالبي
تُرى يريني الدهر أيدي شيعتي
تمكّنُ يوماً من نواصي النواصب

## سنة اثنتين وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الناصر لدين الله، وذلك في ليلة عيد الفطر، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً إلا يومين، وكان عمره نحواً من سبعين سنة.

سيرته: كان صاحب رأي وتدبير وسياسية، وكان فاضلاً متميزاً أديباً جيد الفكرة حاضر البديهة، فيروى أن وزيره نصير الدين العجمي لمَّا حبسه في داره ومنع من الوصول اليه، وأجرى عليه مايقُوتُه كتب إلى الخليفة كتاباً يقول في أوله:
ألَقنني في لظى فإن غَيَّرتني
فَتَيقَّنْ أنْ لَسْتُ بالياقوت

- ١٠٠٣٥ -

عَـــرَفَ النَّسْـــجُ كـــلُّ مـــن حـــاكَ لكـــ
ـــنَّ نَسْـــجُ داودَ لَيْـــسَ بـــالعنكبـــوت

فأجابه الخليفة بخطه:

نَسْـــجُ داودَ لم يفـــدْ صـــاحـــبَ الغَـــ
ـــارِ وكـــان الفخـــار للعنكبـــوت
وبقـــاء السَّمَنـــدِ في لهب النَّـــ
ـــارِ مـــزيـــلٌ فضيلـــة اليـــاقـــوت

oberikandl.com

# خلافة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

هو أبـو محمد بن النـاصر بن المستضيء بـن المستنجد بن المقتفـي بن المستظهر بن المقتدي وأمـه أم ولد، بويع له يوم تـوفي والده الإمام الناصر، وكان والده قد خطـب له بولاية عهده في سائر المنابر الإسـلامية، ثم نقم عليه بعـد ذلك لشيء بلغه عنـه فأسقط اسمـه من ولاية العهـد وحبسه وضيق عليه تضييقاً شديداً، ومـال الى ولده الأصغر علي وعزم على الخطبة له ونقـش السكة باسمـه، فاتفقـت وفاة الأمير علي في حياة أبيـه وخلَّف أولاداً أطفـالاً فبعث بهم الإمـام الناصر الى سينيـز(٢١) فأقـاموا بها، ثـم رضي الخليفة عـن ولده الظـاهر فَعَهـد إليه وبـايع لـه الناس، وكتـب الى سائر الآفاق بإعـادة الخطبة له إلا أنه لم يُخرجه من محبسه خوفـاً منه، فإنه كان أَيْداً شديد القوة عالي الهمة.

ولما توفي الناصر لدين الله أخرج الظاهر بـأمر الله من محبسه، وبويع له بالخلافة البيعة الخاصة، ثم بويع لـه البيعة العامة لليلتين مضتا من شوال مـن هـذه السنـة فأظهـر العـدل ونشره، وأزال الظلـم ودحضـه وردَّ على الناس أموالاً جـزيلة كانت قـد أخذت منهم، وأزال مكوسـاً كثيرة كانت قد جُددَتْ عليهم.

وفي هذه السنة قصـد السلطان الملك المعظم صـاحب دمشق حمص، ونزل عليهـا فشعث بلدها، واستغـل منه جملة، فجاء الملـك الأشرف إليه وسألـه أن يرحـل عنها ،فرحـل عنها راجعاً الى دمشـق ومعه أخـوه الملك الأشرف رحمها الله، فأقام عنده مدة بدمشق ثم رجع الى بلاده.

- ١٠٠٣٧ -

## سنة ثلاث وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الظاهر بأمر الله، وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شهر رجب، وكانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وكان عمر نيفاً وخمسين سنة.

وقد رويَ أنه لما بُويع قال: كيف يَليق أن يفتح دكانا بعد العصر من قد نيف على الخمسين سنة وتقلَّد الخلافة[٢٢].

سيرته: كان رحمه الله عادلاً حسن السيرة، كارهاً للظلم، وكان شجاعاً بعيد الهمة ذا رغبة في الخير، عقد على دجلة ببغداد جسراً عظيماً، فأنفق عليه أموالاً عظيمة، فصار لبغداد جسران، ولم يكن لها قبل ذلك من مئتي سنة وكسور غير جسر واحد.

ويروى أنه كتب اليه بعض أصحاب الأخبار بحادثة وقعت فيها سعاية ببعض أرباب الدولة، فكتب بظاهرها الى الوزير: إن عاد صاحب خبر كتب مطالعة ضربت عنقه، فامتنع المفسدون من السعايات، ولم يزل رحمه الله متمسكا بالعدل، سالكاً طريق الخير إلى أن توفي.

- ١٠٠٣٨ -

# خلافة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين

خليفة الوقت وإمام العصر خَلَّدَ الله دولته وأعلى كلمته هو أبو جعفر المستنصر، بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد، بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد، بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله، بن ذخيرة الدنيا والدين أبي عبد الله محمد، بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، بن القادر بالله أبي العباس أحمد، بن اسحاق، بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد، بن الموفق بالله أبي احمد طلحة، بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر، بن المعتصم بالله أبي اسحاق محمد، بن الرشيد أبي جعفر هارون، بن المهدي أبي عبد الله محمد، بن المنصور أبي جعفر عبد الله ، بن محمد الإمام، بن علي السجاد بن عبد الله الحبر، بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كلاب، بن مرة بن كعب، بن لؤي بن غالب، بن فهر - وهو قريش في قول الأكثر - بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نزار، بن معد، بن عدنان.بويع أعز الله أنصاره بالخلافة يوم توفي والده الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين وعمره يومئذ عشرون سنة أو إحدى وعشرون سنة، وأول كلمة سمعت منه لما ولي: «نستمد المعونة بالله تعالى» فأظهر من حسن السيرة والعدل أضعاف ماأظهره والده، وأفاض من الصدقات، وأجزل من العطاء والأنعام مافاق به على من سبقه من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، فلاتجد أحداً ممن ورد بغداد في أيامه إلا ناشراً لفضله، شاكراً لبرّه، داعياً الى الله تعالى في تخليد دولته وتشييد مملكته راغباً إليه في أن يمتع المسلمين بطول بقائه، وأن يجعل النصر والتأييد من قرنائه آمين.

- ١٠٠٣٩ -

## سنة أربع وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك يوم الجمعة بدمشق سلخ ذي القعدة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهوراً.

سيرته: كان رحمه الله شجاعاً عالي الهمة أبي النفس غزير الفضل عالماً. ولما توفي استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده السلطان الملك صلاح الدين أبو المظفر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان عمه الملك العزيز قد قصد بعلبك ليأخذها من صاحبها، فمنعه من ذلك الملك الناصر، وبعث إليه يتهدده إن لم يرحل عنها فتَوَغَّر قلبه بسبب ذلك، واستوحش منه وفارقه وصار الى أخيه السلطان الملك الكامل.

## سنة خمس وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الكبير الشهيد الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية في عساكره، فوصل الى نابلس ونزل بها، ووصل إليه أخوه السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل صاحب بانياس رحمه الله متلقياً له، فأكرمه غاية الإكرام وأحسن إليه.

وكان ملك الألمان المعروف بالانبرطور قد وصل مدينة عكا في جمع من الفرنجية طالباً بلاد الاسلام، قاصداً الاستيلاء عليها، ولما صار السلطان الملك الكامل بنابلس خاف الملك الناصر ابن الملك المعظم منه، فبعث

إلى عمه السلطان الملك الأشرف يستنجد به ، ويسأله المصير إليه، فوصل السلطان الملك الأشرف إلى دمشق، ودخلها في العشر الأخير من شهر رمضان، فاجتمع بالملك الناصر، وقال له: لايمكنني مقابلة السلطان وإنما أنا أتوجه اليه وأصلح الحال معه، فتوجه إليه واتفق رحيل السلطان من نابلس الى تل العجول ليكون في مقابلة الفرنج، وأما الانبرطور فإنه نزل بجموعه إلى يافا، والرسل تتردد بينه وبين السلطان.

وصل السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل، ثم وصل بعده الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ووصل الملك الناصر داود الى نابلس فنزل بها وجرى بينه وبين عز الدين أيدمر مملوك أبيه أموراً أوجبت أن عز الدين فارقه وصار الى السلطان فاستخدمه، وأحسن إليه، وأقطعه اقطاعاً كثيراً.

## سنة ست وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان بتل العجول والملك الناصر داود بنابلس والرسل تتردد بين السلطان والفرنج في أمر الهدنة والصلح.

ذكر الهدنة

واقتضى الحال أن الأمر انبرم بين السلطان رحمه الله والفرنج على أن يُسَلَّم اليهم البيت المقدس داخل الخندق فقط، ولا يكون لهم من بلده إلا قريات معدودة، وإنما فعل ذلك لأن الفرنج كانوا في كثرة من العدد وأمدادهم متواصلة إليهم من البحر، وخاف على البلاد من غائلة العدو، فرأى تسليمه إليهم إلى أن تقوى كلمة الإسلام ويحصل الاتفاق بينهم، وكان ذلك من المصلحة فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد

الإسلامية الى الكفار إذا رأى في ترك التسليم إليهم ضرراً ظاهراً لايمكن تلافيه.

## منازلة السلطانين الأشرف والكامل دمشق

ثم إنه استقر الحال بين السلطان الملك الكامل والسلطان الملك الأشرف على أن يؤخذ من الملك الناصر دمشق وأعمالها، ويعوض عنها: حران، والرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، وغيرها، وأن تكون دمشق ومايتصل بها من الأعمال الى عقبة فيق للملك الأشرف، وأن يكون للسلطان الملك الكامل من فيق الى العريش، وأن تؤخذ حماه من صاحبها قلج أرسلان ابن الملك المنصور، وتعطى للملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور، إذ هو وصيُّ أبيه، والمعهود إليه بالسلطنة، وأن تؤخذ بعلبك من صاحبها الملك الأمجد وتعطى للملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب بانياس، وأن يعطى الملك المجاهد أسد الدين سلمية، فإنها كانت اقطاعاً لأبيه ناصر الدين.

ولما وقع الاتفاق على ذلك توجَّه السلطان الملك الأشرف، ومعه الملك المجاهد نحو الملك الناصر فاجتمعا به بالقصر وخاطباه فيما وقع الاتفاق عليه، وأخبراه أن السلطان غير قانع منه إلا بتسليم مافي يده، وأخذ مابذل له عوضاً عن ذلك، فحمله أمراؤه وأصحابه على المخالفة، وأن لايجيب الى ماطلب منه، وحملوه على الرحيل الى دمشق والتحصن بها، فرحل في أصحابه الى دمشق وساق إليها سوقاً حثيثاً.

ورحل السلطان الملك الأشرف في إثره، وفارق الملك الناصر عمه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى وابن عمه الملك المغيث شهاب الدين ابن الملك المغيث ابن الملك العادل، وصارا

مع الملـك الأشرف، ودخل الملـك الناصر دمشـق فستر أسوارهـا، وحفظ أبـوابها، واستحصن بها، ونـزل الملك الأشرف بمـرج الصفـر، فبعث اليـه السلطان رحمه الله الأمير فخـر الدين عثمان في ألـف فارس، ثم بعـث مع الملك المظفر تقي الـدين ابن الملك المنصور ألف فـارس أخرى، فوصلوا الى الملـك الأشرف، وقـد نـزل بجسر الخشب، وتـواصلـت إليـه الأمـداد بعضها يتلو بعضاً، ثم سار السلطان الى خربة اللصوص فنزل بها، ثم إن السلطان الملـك الأشرف بعث الى أخيه السلطـان الملك الكامـل يستحثه على القدوم فبعث اليه يقول له: تعلمُ أن الكـرك والشوبك وهي من جملة البلاد التي تعينَّتْ لي حصينة فإن تعسَّرَ أخذها كيف يكون الحال؟ فاتفق الحال بينهما على أنـه إن تعذَّر أخـذهما بعـد فتـح دمشق كـان للسلطـان الملك الكامل البلاد التي كانت عينت للملك الناصر عوضا عن دمشق، فرضي السلطان بـذلك وقدم الى دمشق، واتفق هـو وأخوه الملك الأشرف على محاصرتها، وضـايقوهـا مضايقـة شـديدة، وآخـر الأمر أنهما تسلماهـا صلحاً في مستهل شعبان.

**استيلاء السلطان الملك الأشرف على دمشق:** ولما ملـك السلطـان الملك الكامـل رحمه الله دمشق سلمها إلى أخيه السلطـان الملك الأشرف، وأخذ منه عـوضاً عنها من بـلاد الشرق: حران ، والرقة، والـرها، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر، وأبقى على ابـن أخيه الملـك الناصر صـلاح الـديـن داود ابن الملـك المعظـم: الكـرك، والبلقـاء، ونابلـس، والأغـوار، وأعمال القدس، وبيت جبريل، والصلت.

وتسلـم السلطان الكـامل رحمه الله البـلاد الساحليـة جميعها: طبريـه، وكوكب، والخليل، والشوبك، ثم بـرز السلطان الملك الكامل الى القابون، متوجهـاً نحو البـلاد الشرقية، فسـار الى سلمية ونـزل بها، وسيرَّ السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور خلَّد الله ملكه الى حماه في شعبان ليأخذهـا من أخيه الملك الناصر، فسار اليها ومعـه خاله الملك

العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، والملك المجاهد صاحب حمص، فنازلها مستهل شهر رمضان، ونصبوا عليها المجانيق.

ولما كان اليوم السادس عشر من شهر رمضان، نزل الملك الناصر صاحب حماه بنفسه جريدة، ومضى إلى خاله السلطان الملك الكامل وهو بسلمية، وبذل له مالاً عينهُ ليبقي عليه حماه، فلم يجبه الى ذلك، فسأله أن لايعطي حماه لأخيه الملك المظفر بل يأخذها السلطان لنفسه، فأظهر له الإجابة الى ذلك، وبعث السلطان نوابه ليتسلموا البلد فامتنع النواب بحماه من ذلك، ونصبوا الملك المعزّ ابن الملك المنصور للسلطنة، وقالوا: لانسلّم البلد لغير أولاد الملك المنصور.

ولما رأى السلطان ذلك رحل الى الشرق واستصحب معه الملك الناصر قلج أرسلان تحت الحوطة مضيقاً عليه، إذْ ظنَّ السلطان أن امتناع النواب من التسليم بمواطأة منه، وأذن السلطان للملك المظفر في تسلم البلد إذ هو المعهود اليه بالسلطنة من أبيه، فراسل الملك المظفر النواب في ذلك، فأجابوه وسلموا البلد إليه، وكان أحق به من أخيه، وأولى إذ هو أكبر أولاد أبيه سناً وقدراً، ووصي أبيه بالملك دونهم.

وكان تسلمه لحماه لليلتين بقيتا من شهر رمضان، ثم توجه السلطان الملك الكامل رحمه الله الى الشرق، فرتَّبَ أمورها ثم عاد الى مصر.

ولما فتحت حماه رحل العسكر الذي كان مرتباً لحصارها الى بعلبك فنازلوها، وأقاموا على حصارها إلى أن تسلموها.

## سنة سبع وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محاصر قلعة بعلبك، وكان قد استقر أن الملك الأشرف يأخذها لنفسه، وكنا قد ذكرنا مسير عسكر السلطان الملك الكامل إليها، ونزولهم عليها، وتسلمهم لها، ولم يبق إلا القلعةفنزل العسكر المصري إلى الديار المصرية، وتولى الملك الصالح محاصرة القلعة بمن معه من عساكر السلطان الملك الأشرف، ولم يزل مضايقاً للقلعة محاصراً لها إلى أن تسلمها صلحاً، وعوّض صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه خيراً من عمل دمشق، وسلم إليه كل مافي القلعة وتسلم ذلك، ومضى الى دمشق، ودخل نواب السلطان الملك الأشرف الى القلعة واستولوا عليها.

- ١٠٠٤٥ -

## منازلة خوارزم شاه أخلاط وأخذه لها

وفي هذه السنة نزل خوارزم شاه منكبرتي بن خوارزم شاه تكش على أخلاط، وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وشتا عليها، وحديث ذلك أن خوارزم شاه بعد أن هزمته التتر، وكان من أمره ماقد ذكرناه في موضعه عاد الى بلاد العجم وجمع جمعاً عظيماً، وقوي أمره، وطمع في الاستيلاء على بلاد العراق، وقصدهُ سنة اثنتين وعشرين وستمئة قبل وفاة الإمام الناصر، ولما علم الخليفة به خاف منه فبعث أبقاراً كثيرة فحرثت المراعي التي في طريقه وقلبت الزراعات، ولما وصل خوارزم شاه الى أطراف العراق لم يجد مرعى، فتوجه الى دقوقا فنهب وسفك وأفسد، ثم مضى الى مرج شهرزور فصالحه الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ووصلت إليه كتب الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق يظهر فيها الميل إليه والانتماء إلى طاعته، واستحثاثه على أخذ البلاد من الملك الأشرف.

وكان سبب ذلك ماكنا ذكرناه من الوحشة التي وقعت بينه وبين أخويه: الملك الأشرف والملك الكامل، فراسل خوارزم شاه الملك المعظم ومال إليه، وبعث إليه خلعة فلبسها وركب بها.

ولما توفي الملك المعظم، وجرى من تفاصيل الأمور ماذكرناه قصد خوارزم شاه أخلاط ونازلها، وكان نائب الملك الاشرف بها عز الدين أيبك مملوكه، وكان بها أيضاً أخو الملك الأشرف الملك المعز مجير الدين يعقوب، وتقي الدين عباس ابنا الملك العادل.

وطالت مدة الحصار بأخلاط وقلَّت بها الأقوات حتى أكل أهلها لحم الكلاب، وبلغ الرطل الشامي من الخبز بها ديناراً مصرياً، وكان بأخلاط

جماعة من اللاوية، فأخذوا سناجق خوارزم شاه ورفعوها على الأسوار على حين غفلة من أهلها، فخذل الناس عند رؤيتها وانهزموا يقتل بعضهم بعضاً، ودخل جلال الدين المدينة وملكها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، ثم حاصر القلعة حتى تسلمها بالأمان، واحتاط على أخوي السلطان الملك الأشرف، وعز الدين أيبك.

## كسرة الخوارزمي جلال الدين

ولما طارت الأخبار الى السلطان الملك الأشرف باستيلاء خوارزم شاه على أخلاط، وتملكه لها، توجه الى بلاد الروم مستنصراً بصاحبها السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، فاجتمع به بإبلستين[٢٣]، ثم خرج هو والسلطان علاء الدين بجموعهما إلى آق شهر فنزلا بها.

وكان لعلاء الدين عشرة آلاف فارس في ارزنكان، فبعث إليهم يستدعيهم، فوقعوا على ألف فارس كان خوارزم شاه قد جهزهم للغارة وقاتلوهم، فقتل من عسكر الروم أربعة آلاف فارس، وامتلأت الأدوية والجبال منهم، ثم تقدم خوارزم شاه في عساكره ووقعت الحرب بين الفريقين في يوم الجمعة، واستمرت الحرب الى أن حجز بينهم الليل، وباتوا على تعبئتهم، والتقوا يوم السبت فأنزل الله تعالى نصره على السلطان علاء الدين صاحب الروم والملك الأشرف، وانهزم خوارزم شاه أقبح هزيمة وقتل من أصحابه مالايحصى كثرة وأسر مثلهم، وتوجه خوارزم شاه هزيماً إلى خوي، وبعث تقي الدين عباساً أخا السلطان الملك الأشرف الى الخليفة مقيداً هدية، فأكرمه الخليفة وخلع عليه، وبعث به إلى أخيه، ثم اطلق خوارزم شاه مجير الدين بعد ذلك، وأما عز الدين ايبك فقتله.

ثـم قصدت التتر بعـد هذه الكسرة جـلال الـدين طمعاً فيـه فكسروه، وقدم الى دياربكر هـارباً، وهم في إثره الى أن اغتاله بعـض الأكراد، وكان من أمره ماذكرناه، وكان مقتله في سنة ثمان وعشرين او تسع وعشرين.

## سنة ثمان وعشرين وستمئة

في هذه السنة وثب على الملك الأمجد بهرام شاه بـن عز الدين فرخشاه ابن شـاهان شاه بـن أيوب صاحـب بعلبك، كـان بعض مماليكـه فقتله، وذلك في داره بدمشق، وكان عالماً فاضـلاً أديباً شاعراً، وله ديوان مشهور في أيدي الناس كثير.

## سنة تسع وعشرين وستمئة

في هـذه السنـة خرج السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله من الـديـار المصرية متوجهاً الى الشرق لأخـذ آمد من صاحبها، فإنـه كان ظالماً سيء السيرة كثير العسف للـرعايـا، فوصـل اليها السلطـان رحمه الله، ونازلها في شهر ذي الحجة، وزحف اليهـا فأخذها في يوم واحد، ووقفـت على رسالة لبعض الفضلاء تتضمن كيفية أخذها فكتبت المقصود منها وهو:

«فان السلطان أعـز الله أنصاره لم يقصده إلا غضباً لله، لما انتهكـه من محارمه، وإقامة لمنار العدل الـذي شرع في هدم معالمه، وشفقة على خلق الله الذين بسط عليهم، منـذ وليهم، أيدي مظالمه، ولما أبى إلا التمادي في الطغيـان، والإيغال في مهـالـك العصيـان، وظنَّ ان الثلـوج تنجـده، وأن السلطان يفي له بوعده، وطال ماأخلف مـن يعدهُ، وأغر بأصحابه الذين

وقعوا معه بذنوبهم، أمر السلطان أعز الله أنصاره، أبطاله بالزحف فتقدمت وزحفت، وعساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض لحركتهم، ورجفت، ودنا الجيش المنصور من السور فدنا وتدلى، ورأى الخصم عين القصم فعبس وتولى، وأطلق الجاليش عقائل التراكيش فكسفت السور وهتكت حجابه، وأماط الزراقون لثامه، وسفر النقابون نقابه، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا، وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح السرع مسارع الحتوف، وتفرقت منهم الصفوف لما سلت عليهم السيوف، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين».

## سنة ثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان رحمه الله ببلاد الشرق، وقد استولى على آمد وبلادها، ومعه ملوك أهل بيته وهم: السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى، والملك الناصر داود، والملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، والملك العزيز عثمان، وأخوه الملك الصالح اسماعيل، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم، ثم توجه السلطان راجعاً الى الديار المصرية، ورجع كل ملك الى بلاده.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وذلك في شهر رمضان، وكان ملكاً شجاعاً كريماً كثير البر والاحسان والصدقات.

ولما توفي أقر السلطان بلاده على ولده الملك الظاهر نجم الدين أيوب، ثم توفي بعد والده بمدة يسيره، فعين السلطان الصبيبة [٢٤] قلعته لأخيه الملك السعيد بن الملك العزيز، وهي بيده الآن.

- ١٠٠٤٩ -

## سنة إحدى وثلاثين وستمئة

في هـذه السنة خـرج السلطـان الملك الكـامـل قـدَّس الله روحه مـن الديـار المصرية، متوجهـا الى دمشق، فـوصلها واجتمعت إليـه بها الملوك والعساكـر، ثم بـرز منها طـالباً لبلاد الـروم لقتال السلطـان علاء الـدين والاستيلاء على بلاده.

وكان سبب ذلك تعدِّي علاء الـدين باستيلائه على أخلاط، وتملكه لها فعـزم السلطـان أولاً على دخـول بـلاده من جهـة الـدربنـدات، فقطـع بعضهـا ثم رأى أن في ذلـك خطـراً لاتؤمـن غـائلته، فـرجـع منها ونـزل بـالسويـداء، ونزل صـاحب خـرتبرت الى خـدمته، وسـأله أن يُسيِّرَ معـه عسكراً إلى خـرتبرت ليمنعوا صـاحب الروم مـن أخذهـا، فسيَّر السلطان الملك المظفر صاحب حماه، وشمس الـدين صواب في جماعة من الأمراء، فدهمهـم عسكر علاء الـدين في عـالم لايحصى، فثبت لهم الملـك المظفر، وقاتـل قتالاً شديـداً غير أنه كان في قلـة من العـدد، وذلك بالقـرب من خرتبرت، فأسر أكثـر أصحابه وقتل منهم جماعة، وصعـد الملك المظفر في بقية مـن معه الى قلعة خرتبرت في حميـة، وحاصره سلطان الروم مـدة، ثم طلب الملك المظفر الأمان فأمنه وأصحابه، وتوجه راجعاً الى السلطان.

## سنة اثنتين وثلاثين وستمئة

في هـذه السنـة رجـع السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله الى الـديـار المصرية، وذلك لأنـه دخل الشتاء، وحال الثلج بينـه وبين بلاد الروم وفي هذه السنـة جهز سلطـان الروم عسـاكره الى الشرق، فنـازلوا قلعـة الرهـا ونصبـوا عليها المجـانيق وضـايقوهـا مضـايقة شـديدة حتـى فتحوهـا، وأخذوا ماكـان بها للسلطان الكامل من الذخـائر والاموال، وسيروا ذلك

الى سلطان الروم، وفتحوا أيضاً قلعة حران، وولوا عليها وحفظوهما بالرجال والعدد.

ولما بلغ السلطان ذلك خرج من مصر في عساكره، فقدم الى دمشق، ثم خرج منها هو وأخوه السلطان الملك الأشرف رحمها الله متوجهين الى المشرق، ولما بلغ عساكر الروم قدوم السلطان كروا راجعين الى بلادهم، ومضى السلطان الى الشرق، ونازل قلعتي حران والرها.

## سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

في هذه السنة فتح السلطان رحمه الله قلعتي الرها، وحران، وقبض على من كان بها من أصحاب سلطان الروم، فبعث بهم مقيدين الى الديار المصرية، ثم رجع السلطان رحمه الله الى دمشق فأقام بها.

وفي هذه السنة سير سلطان الروم عسكراً كثيفاً إلى آمد فنازلوها، وصاحبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل خلد الله ملكه، فلم يظفروا منها بشيء، وقاتلهم السلطان الملك الصالح، فأنكى فيهم نكاية عظيمة.

ولما بلغ ذلك السلطان الكامل رحمه الله خرج من دمشق في عساكره، ودخل الشتاء فرجعت عساكر الروم الى بلادهم.

## سنة أربع وثلاثين وستمئة

في هذه السنة رجع السلطان رحمه الله الى دمشق، وكان قد بعُدَ عنها

مقدار ثلاث مراحل، ثم خرج من دمشق متوجهاً الى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وذلك لعشر مضين من ربيع الأول، فكانت مدة عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وشهوراً.

سيرته: كان عادلاً كريماً حسن الاعتقاد، لين الجانب، كارها للظلم، متجنباً لسفك الدماء، مائلاً إلى الخير وأهله رحمه الله ورضي عنه.

ولما توفي أُجلس في الملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن ايل غازي بن يوسف بن أيوب، وقام بتدبير ملكه وحفظ دولته جدته خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة وقعت وحشة بين السلطانين: الملك الكامل والملك الأشرف رحمهما الله لأشياء باطنة كانت بينهما، لم تقع الاحاطة بتفصيلها، فأدى الأمر في ذلك إلى أن اتفق مع السلطان الملك الأشرف الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص واستمالا الملك الناصر داود صاحب الكرك فمال اليهما أولاً وكاتبهما، ثم فارقهما وتوجه الى السلطان الكامل فالتقاه وأكرمه.

واستمال السلطان الملك الأشرف الملك المظفر صاحب حماه، والحلبيين، وعلاء الدين صاحب الروم، والأمير عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد، فاتفق هؤلاء كلهم وتحالفوا، وتوجهت الى مصر رسل الملك الأشرف، والملك المجاهد، والملك المظفر، والحلبيين، فاجتمعوا بالسلطان الملك الكامل وأنهوا إليه رسالة مضمونها أنهم في خدمته،

وتحت طاعته ماأقام بالديار المصرية، ولم يخرج الى الشام لفتح شيء من البلاد.

ثم اتفقت وفاة علاء الدين سلطان الروم في شهر شوال من هذه السنة، فقام بالملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، فسير اليه السلطان الملك الأشرف القاضي شمس الدين الخوئي رسولاً، وسير اليه الملك المظفر صاحب حماه أيضاً رسولاً، وكذلك الملك المجاهد والحلبيون، وتوجه هؤلاء الرسل الى الروم جملة، ومضمون رسالتهم واحدة، وهي: التعزية بأبيه، والتهنئة بملكه، وتجديد ماكان قد تقرر بينهم وبين أبيه، مع الاتفاق عنهم، والحلف لهم.

وفي هذه السنة مرض السلطان الملك الأشرف ولم يزل مرضه في تَزَيُّد الى [أن] خرجت السنة.

## سنة خمس وثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف مريض مثقل في مرضه، وقد عهد بالملك بعده إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل، واستحلف له الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، وعز الدين ايبك المعظمي، وكانا يومئذ بدمشق واستحلف له أيضاً الملك المظفر صاحب حماه والحلبيين، ثم كانت وفاة السلطان الملك الأشرف رحمه الله مظفر الدين أبي الفتح موسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك بكرة يوم الخميس لأربع خلون من المحرم، فكانت مدة ملكه لدمشق ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، ومدة ملكه من حين مات أبوه تسع عشرة سنة وشهوراً.

سيرته رحمه الله: كان رحمه الله جواداً مفرط السخاء غزير البذل، كثير الصدقات والبر والاحسان لاسيما في آخر عمره، فإنه أوقف بدمشق وقوفاً جليلة وأثر آثاراً حسنة، ولو لم يكن إلا الجامع الذي أسسه بالعقيبة لكان عظيماً قدره، نبيلاً أمره، فإنه رحمه الله عمد إلى خان يعرف بخان ابن الزنجاري تشرب فيه الخمور، وتؤجر فيه القيان، فهو من أشهر المواضع بالفسق والفساد وانتهاك الحرمات، فهدمه وصيرهُ جامعاً تقام فيه الصلوات في أوقاتها، ويواظب فيه بقراءة القرآن، وتقام فيه الجمعة، وصار يُعرف بجامع التوبة، ووقف أيضاً داراً لسماع الحديث النبوي، وأوقف عليها، وعلى جامعه وقوفاً عظيمة، الى غير ذلك من الآثار الحسنة.

ولما مرض مرض وفاته لم يزل ذاكراً الله تعالى بلسانه وقلبه، مستغفراً لما سلف من ذنبه، تائباً متضرعاً مكثراً من تلاوة القرآن الى أن توفاه الله الى رضوانه، ونقله الى ماأعده له من جنانه.

ولنشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على مانقلناه من رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي، فإني لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ.

لما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بعده أخوه الملك الصالح اسماعيل، وتواترت الأخبار بعزم السلطان الملك الكامل قدس الله روحه على التوجه من الديار المصرية الى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحضير دمشق وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص الى بلده، والتزم بإنفاذ الأموال والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم، وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح الى الروم لطلب النجدة والمساعدة،

وتوجه عزالدين أيبك المعظمي إلى صرخد لتدبير أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان رحمه الله أن تحقق نزوله بعجلون، فجدَّ الملك الصالح في تحصين البلد وقطع الأخشاب وعمل الستائر.

وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح، منهم الناصح الفارسي، وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الملك الكامل ورجع الى طاعته، ووردت إليه كتب السلطان يتطبيب قلبه ووعده فيها كل وعد جميل.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لايبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة أيتام وغيرهم، ونودي بأن لايبقى أحد بالعقيبة ولاقصر حجاج وتهددوهم بالنهب، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يُعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجالة كثيرة، وفرَّق السلاح ورتب الأجناد والأمراء على الأسوار.

## منازلة السلطان الملك الكامل دمشق وتملكه لها

ثم وصل السلطان رحمه الله الى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول، وعمل اليزك عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية في النهب والخراب، ووصل عز الدين أيبك المعظمي من صرخد، ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: فلقد رأيته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قائم حائر لايستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها، ولايستطيع أصحابها منعهم من ذلك.

ودخل عز الدين وحده بعد الشدة ولم يقدر الجمدار الذي له من الدخول معه لفرط الزحمة، وضاقت لذلك صدور الناس وأيقنوا بالحصار الشديد، ولزُّوا في الدخول إلى المدينة وشرعوا في اخراب الخانات بظاهر البلد.

وبقي الأمر على ذلك أياماً، ثم ضرب البوق وخرج العسكر فالتقوا عند ميدان الحصا وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة، وخرج من الرجالة خلق، ثم بعث الملك الصالح يستدعي الملك المجاهد صاحب حمص فاعتذر بأنه خائف على بلاده من صاحب حماه ولم يأت، وسيرَّ مئتي رجل نجدة فأخذ بعضهم في البساتين، وسيروا الى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحواً من خمسين رجلاً، ووصل بعضهم وهم مجروحون، واستمر الخراب والقتال بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل من له غرض مع أحد وهو غائب، خرج الى داره فأخربها وربما حرقها.

ثم ضرب البوق وخرجت المفاردة فالتقوا عند الميدان من بعد الظهر الى صلاة المغرب، وأخذ مملوكان من مماليك السلطان وشيخ يقال له الشخوصي، واصبح الناس يخربون وينهبون، ثم ضرب البوق بعد أيام وخرج جميع العسكر الى قصر حجاج والتقوا، فكانت الغلبة للدمشقين وأخذوا من العسكر المصري خمسة عشر فارساً من جملتهم سيف الدين ابن الغول، صورة أخذهم أنهم دخلوا خاناً ليأخذوا جمالاً كانت فيه، فغُلِّقَ عليهم الباب وأخذوا وعُرُّوا، وعُرضوا على الملك الصالح، ولما عرضوا عليه ابن الغول كان عرياناً مكشوف الرأس في أقبح صورة، أنشد:

لاتزدريني بأن ترى خلقي
فإنما الدُّرر داخل الصدف

فضحك منه الملك الصالح وأمر بحبسه، ثم أمر جماعة فضمنوه وأخرجه وأنعم عليه بعد ذلك بخلعه وعشرة دنانير وثلث، وأعجب شيء جرى لابن الغول هذا أنه لما أغلق عليه وعلى من معه الخان، كان معه كيس فيه دراهم فَحلَّهُ من وسطه ودفنهُ في الخان، فلما خرج من الحبس وضمنه الجماعة ذهب ونبشه وأخذه.

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى الصبح، وفُتحت الأبواب، وخرج العسكر فالتقوا في الميدان الى ارتفاع النهار.

وفي ذلك اليوم قتل سيف الدين بن شجاع الدين جلدك من أمراء ديار مصر، وجاؤوا به الى القلعة وبه رمق يسير، فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب، ومات في تلك الليلة فغسِّل وكُفِّن، ثم سُيِّر الى العسكر فدفن هناك رحمه الله، وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أيبك الوَّراقه وتلك الأماكن كلها.

ولما كان مستهل جمادى الأولى ضرب البوق، وزحف الملك الناصر داود صاحب الكرك من العقيبة الى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين اليحياوي من جهة باب توما، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد في أن المدينة تهجم.

واستمر القتال الى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان الكامل فرحل الملك الناصر من العقيبة، ولما أصبح الصباح خرج الملك الصالح بالحجارين والزَّارقين والحرافشة فحرقوا ونهبوا وخربوا وردموا: العقيبة، وقصر حجاج، والشاغور، وباب توما، وباب السلام، واضطرب الناس في

المدينة اضطراباً شديداً خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ماعلى الناس بدمشق الطحين فإن الانسان كان يشتري غرارة القمح بخمسة وعشرين درهما ويطحنها بثلاثين درهماً، فمنَّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب الى ذلك، وعوَّضهُ عن السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها، مضافاً الى ماكان بيده من بصرى وأعمالها، وجمع الله الكلمة، وتم الصلح يوم الثلاثاء لتسع مضين من جمادى الأولى، ودخل السلطان رحمه الله الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الأولى، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً مارأى الراؤون مثله في عظمته وجلالته.

ثم تقدم السلطان الى عسكر حلب بأن لايقيموا بدمشق غير ثلاثة أيام، وعفا عمن خامر عليه، ودخل الى دمشق.

ولما ملك السلطان الكامل دمشق بعث الى الملك المظفر صاحب حماه منشوراً بسلمية، وكانت للملك المجاهد، وأمره بالتبريز إلى جهة حمص لتصل إليه العساكر ويجتمعوا على أخذها، فبرز إلى الرستن ونزل به وبعث نوابه الى سلمية فتسلموها، وأمر السلطان الملك الكامل عساكره بالنزول في ظاهر حماه، فنزلوا بالقابون، وبعث الملك المجاهد أهله الى دمشق يلتمس الصلح وبذل جملة عظيمة من المال فنزل أهله بالقصر، ولم يؤذن لهم في الدخول الى دمشق، وكان المتولي لأمرهم والساعي في الصلح بينهم الأمير سيف الدين بن قلج.

وجهز السلطان رحمه الله في تلك الأيام العساكر الى خدمة مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين خلَّد الله ملكه، نجدةً له على حرب التتر، وجعل المقدم عليهم الملك المظفر تقي الدين بن الملك الأمجد صاحب بعلبك وأخاه الملك السعيد.